إعداد الإنسان للآخرة

في القرآن الكريم

رسالة تقدم بها

سعدالله أحمد عارف

إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير في أصول الدين

بإشراف الدكتور

محمد رمضان عبدالله

ربيع الثاني 1414 هـ

تشرين الأول 1992 م

بغداد

أعوذ بالله من الشيطن الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}

الآيات 38، 39، 40 من سورة غافر

الإهداء

إلى من ذقت حلاوة الإيمان على يديه المباركتين

سيدي وشيخي حضرة الشيخ عبدالله بن الشيخ مصطفى بن الشيخ أبي بكر الهرشمي النقشبندي. .

نفع الله سبحانه وتعالى بهم وأنالهم من الكرم اللائق بذاته الأقدس

آمين

سعدالله

شكر وتقدير ودعاء

بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل والامتنان الكبير لأستاذي فضيلة الشيخ الدكتور محمد رمضان عبدالله. الذي شجعني كثيراً على المضي قدماً في هذا البحث، ومنحني من علمه وفضله العميم الكثير الكثير فجزاه الله تعالى عني خيراً ووفقه لمراضيه وجعله من أهل السعادة في الدارين وسقاه من الرحيق المختوم شربة لا يظمأ بعدها أبداً إنه سميع قريب مجيب.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل أساتذتي وكل من كان عوناً لي في هذا الطريق، داعياً المولى القدير سبحانه وتعالى أن يجعلهم منارات للهدى والخير، وأن يمن عليهم برضوانه الكبير برحمته التي وسعت كل شيء.

والحمد لله رب العالمين.

الباحث

المحتويات

المقدمة

الباب الأول

كبرى الحقائق في الوجود

المبحث الأول: خلق الإنسان وإسكانه الجنة وإهباطه إلى الأرض

المبحث الثاني: الدنيا دار ابتلاء

المبحث الثالث: حقيقة الموت

المبحث الرابع: استهداف القرآن الكريم إعداد الإنسان للآخرة

الباب الثاني

إعداد الإنسان من جهة الاعتقاد

الفصل الأول: عقيدة الإيمان بالله سبحانه

تمهيد

الإيمان فطرة في النفس

الإيمان والعقل

طريقة القرآن الكريم في توصيل العقل إلى الإيمان بالله تعالى

ميادين الفكر

من ثمرات الإيمان بالله تعالى

الفصل الثاني: عقيدة الإيمان باليوم الآخر

تمهيد

طريقة القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالآخرة

النعيم في القبر

نهاية العالم

قيام الساعة

البعث والحشر

سبيل النجاة من أهوال البعث والحشر

العرض والحساب

الميزان والموزون

الصراط

الحوض

الجنة والنار

النار

من ثمرات الإيمان باليوم الآخر

الباب الثالث

إعداد الإنسان من جهة العبادات

الفصل الأول: اعبدوا الله مالكم من إله غيره

تمهيد

مفهوم العبادة

أنواع العبادات

من ثمرات العبادات في الإسلام

ثمرات أخرى للعبادات

الفصل الثاني: واتبع سبيل من أناب إليّ

تمهيد

أهمية الصحبة وفائدتها وآثارها

سر الصحبة ودليله

وارث الرسول (صلى الله عليه وسلم)

الخاتمة

المصادر والمراجع

المقدمة

سبب اختيار هذا الموضوع. . وأهميته

وخطة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

سبب اختيار هذا الموضوع – أهميته– خطة البحث:

الحمد لله ذي العز المنيع، والمجد الرفيع، والسلطان القاهر، والجلال الظاهر، والملك العظيم الباهر، والآلاء العظام، والمنن الجسام، رازق الأنام، ومصور الخلق في الأرحام.

أحمده على ما أنعم، من نعمة القرآن والإسلام، وأشكره على ما تفضل به من النعم والإكرام، فله الحمد والشكر لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب، وأصلي وأسلم على حبيبه ونبيه سيدنا محمد المبعوث بالحق المبين والصراط المستقيم والدين القويم {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}[1].

أما بعد[2]:

"فإن القرآن الكريم عظيم مجيد حقاً، فكم من علم هو له المصدر والمنشأ، وكم من علم هو الباعث على تطوره وازدهاره". ولقد أحصى الإمام السيوطي رحمه الله تعالى العلوم التي قامت حول كتاب الله تعالى في "الإتقان" فبلغت ثمانين علماً، منها ما يتصل بتفسيره وتأويله وبلاغته، ومنها ما يتصل بناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وإعرابه وغريبه وقرائته، وتجويده. . . إلخ[3]. وهذا يشجع المسلم على التدبر والتفكر في هذا الكتاب العظيم. .

وإني منذ صغري وبفضل تربية والدي طيب الله روحه وثراه، أحببت الحديث عن الآخرة. والتطلع إلى كل ما يتعلق بها، ولا زالت كلمات والدي رحمه الله تعالى ترن في أذني. من يوم أن قال لي "بني الآخرة خير وأبقى" وكثيراً ما كان يجمعنا ويقول لنا: إن شاء الله تعالى نلتقي في الدار الآخرة بع أن نرحل عن هذه الدار الفانية.

---

[1] سورة الشورى آية/ 52 و 53.

[2] روى الإمام أبو داود رحمه الله تعالى في سننه –كتاب الأدب- باب في "أما بعد" في الخطب جـ 4 ص 294. بسنده عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم خطبهم فقال "أما بعد".

[3] أنظر الإتقان في علوم القرآن جـ 1 ص 9.

. . نلتقي في جنات النعيم. . مع النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والتسليم". فكانت هذه الكلمات سبباً من أسباب اختيار هذا الموضوع.

ومن خلال عملي المتواضع في المساجد، رأيت الحديث عن الآخرة، وتوجيه أنظار الناس إليها طريقة سليمة مؤثرة ومختصرة للوصول بالإنسان إلى السلوك القويم، والصراط المستقيم، فكان هذا سبباً آخر لاختيار هذا الموضوع.

والدار الآخرة مستقر الإنسان ومصيره، فلا بد من الاستعداد للنجاة فيها، والاستعدادُ لها بالطرق والوسائل التي شرعها دين الله سبحانه وتعالى المبلغ من قبل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كفيل بتربية أجيال تسعد الدنيا بهم، وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}[1].

وبتأمل هذه الأمور وغيرها مما يتعلق بالدار الآخرة تظهر للقارئ الكريم أهمية هذا الموضوع.

[1] سورة الليل آية/ 5-7.

خطة البحث:

اقتضى منهج البحث وخطته تقسيم هذه الرسالة إلى هذه المقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة.

في المقدمة بينت سبب اختيار هذا الموضوع وأهميته.

وجعلت الباب الأول: في كبرى الحقائق في الوجود.

فتكلمت عن خلق الإنسان بما يدل على أنه مخلوق كريم على الله سبحانه وتعالى، خلقه سبحانه بيده وأسجد له ملائكته وجعله في الجنة.

ثم ذكرت ما جرى لآدم عليه السلام من إغواء الشيطان له وإخراجه من الجنة وإهباطه إلى الأرض، دار الفتنة والابتلاء، ثم بينت حقيقة الموت وما قاله العلماء عنها، وختمت الباب بمبحث آخر ذكرت فيه أن القرآن الكريم هدف إلى إعداد الإنسان للدار الآخرة باعتباره كتاب هداية وإرشاد.

فكان هذا البيان والتوضيح في أربعة مباحث.

وخصصت الباب الثاني: لإعداد الإنسان للآخرة من جهة الاعتقاد فجاء على فصلين:

في الفصل الأول تحدثت عن عقيدة الإيمان بالله سبحانه وتعالى في تمهيد عدة مباحث، فبينت أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى فطرة في النفس الإنسانية وأنه رورة عقلية، وأن القوى الشريرة التي تدعو إلى الإلحاد لا ولن تستطيع من استئصال الإيمان من النفوس مهما تعددت وسائلها وتنوعت.

ثم بينت طريقة القرآن الكريم في إيصال الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى، وذلك بتوجيه العقل والقلب للتجوال في هذا الكون الذي هو من أجلى الأدلة على وجود الخالق جل جلاله وعم نواله. وبعد ذلك بينت بعضاً من ثمرات الإيمان بالله سبحانه وتعالى. .

وتحدثت في الفصل الثاني عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر في تمهيد عدة مباحث بينت فيها طريقة القرآن العظيم في تقرير الإيمان باليوم الآخر. ونقلت ما جاء في القرآن الكريم من تفصيل لجزئيات هذه العقيدة من الإيمان بنهاية العالم وقيام الساعة والعرض والحساب والميزان والصراط والحوض والجنة والنار. .

ثم ذكرت بعضاً من ثمرات الإيمان باليوم الآخر، وذلك في المبحث الأخير من هذا الفصل.

أما الباب الأخير وهو الثالث فقد خصصته لإعداد الإنسان من جهة العبادة. وذلك في فصلين:

تحدثت في الأول منهما عن مفهوم العبادة في الإسلام فبينت شموليتها لحركة الإنسان في الحياة وأنها لا تقتصر على الشعائر التعبدية التي تبحث دائماً في باب العبادات من كتب الفقه. بل تشمل المعاملات والأخلاق وكل تصرفات الإنسان.

ثم ذكرت بعضاً من ثمرات العبادات الإسلامية بالشكل الذي يدفع المسلم المخلص لأن يكون عابداً لله سبحانه وتعالى.

أما الفصل الثاني فقد تحدثت فيه عن الصحبة وفائدتها وآثارها وأسرارها ذاك لأن الصاحب ساحب كما يقولون، وأن سلوك درب الآخرة ليس بالأمر الهين. فالنفس الأمارة ومفاتن الحياة الدنيا وبقية القوى الشريرة كلها عوائق. ولا يمكن للمسلم اجتيازها إلا بصحبة الأخيار، الذين يستفيد المسلم من صفاتهم وأخلاقهم ودعواتهم ما يقوي ظهره على تحمل أعباء التكليف والإعداد للنجاة في الدار الآخرة.

أما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وينفعني به وإخواني المؤمنين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا ن أتى الله بقلب سليم. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الباحث

الباب الأول

كبرى الحقائق في الوجود

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: خلق الإنسان وإسكانه الجنة وإهباطه إلى الأرض.

المبحث الثاني: الدنيا دار ابتلاء.

المبحث الثالث: حقيقة الموت.

المبحث الرابع: استهداف القرآن الكريم إعداد الإنسان للآخرة.

الباب الأول

كبرى الحقائق في الوجود

المبحث الأول – خلق الإنسان وإسكانه الجنة وإهباطه إلى الأرض

في كتاب الله دعوة إلى التعمق في خلق الإنسان والتعرف على طبيعته وسبر غور النفس الإنسانية في كلياتها وجزئياتها. يعرف هذا كل دارس منصف للقرآن الكريم.

ولقد كانت ماهية الإنسان ومكانته في الوجود موضوع بحث الفلاسفة المفكرين منذ الزمان القديم حتى يومنا هذا. فسقراط في محاوراته وأرسطو في بعض كتبه الباقية وأفلاطون في جمهوريته والفارابي وابن سينا وابن طفيل وهيجل وداروين ولامارك. كل أولئك وهؤلاء أدلوا دلوهم في هذا المجال. إلا أنهم جاؤوا ببضاعة مزجاة لا تشترى إلا بأبخس الأثمان دراهم معدودة وكانوا في موضوع خلق الإنسان وبيان مكانته من الزاهدين.

وليس من غرضنا في هذا البحث بيان آرائهم ورد العلماء عليها لكن يكفي لاطمئنان النفس أن نقول على سبيل المثال أن داروين (1809–1882) وزميله الفرد رسل (1823–1913) ومن قبلهما العالم الفرنسي لامارك (1744–1829). يكفي أن نقول أن هؤلاء الثلاثة الذين لا يقوم مذهب النشوء والتطور إلا على أبحاثهم ما أقاموها على دعائم علمية مقبولة في الأوساط العلمية، بل ارتكزت عندهم على الصدفة. إن نظرية التطور تستند بأكملها على أساس الصدفة. وعبثاً يحاول البعض العثور على نقاط التقاء بين هذه النظرية وبين عقائدهم الدينية، دل أن صاحب النظرية "جارلس داروين" يرى أن الكون والحياة هما نتيجتان للصدف، وتأمل الأسطر الآتية من رسالته الجوابية إلى طالب ألماني سنة 1879 حيث يفسر فيها كل شيء بالصدف، فيقول (تستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان، ولكننا لا نستطيع الادعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صدفة المحار هو من صنع كائن عاقل)[1]. فهل طريق الصدفة طريق علمي؟ أبداً، لأن الصدفة تعني نكران العلوم من أساسها. لأن العلم أساسه معرفة العلل والأسباب، والصدفة أساسها جهل وجود العلل والأسباب فالذهاب إليها ابتعاد عن مسلك العلم واقتراب من أزقة الخرافة[2]. ولولا تحول هذه النظرية إلى "ايديولوجية" أريد لها أن تقضي على العقيدة الدينية وتكون البديل عنها لما راجت ولما قبلت.

---

[1] دارون ونظرة التطور، ص 14، بتصرف يسير.

[2] مجمع الأشتات – الكتاب الأول – ص 24 و 25 و 111 – 113.

أما الإنسان في القرآن الكريم فهو السيد الكريم الذي استحق الخلافة في الأرض بعد العناية الفائقة بخلقه. .

قد منّ الله سبحانه على العباد بنعمة الخلق والإيجاد وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه. وبعد أن ذكر ذلك بقوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[1].

ذكر بعدها بدء خلقهم وما امتن به عليهم بتشريف أبيهم آدم عليه السلام وتكريمه بجعله خليفة وإسكانه دار الكرامة وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء فقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[2].

إنه لا بد للأرض من خليفة "يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام"[3].

ولهذه الحكمة في عمارة الأرض واستدامة الحياة والقضاء بين الناس وغير ذلك مما يعلمه الحكيم الخبير قال سبحانه وتعالى للملائكة: "إني جاعل في الأرض خليفة" أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[4]. وكما قال سبحانه وتعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أءله مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[5]. فقالت الملائكة "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" وقد علمت الملائكة أنه لا شيء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد في الأرض.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى "وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول: إن الله لما أخذ في خلق آدم عليه السلام قال الملائكة: ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم، وكل خلق مبتلى كما ابتليت السماوات والأرض بالطاعة فقال سبحانه: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[6] ولذا قالت الملائكة

---

[1] سورة البقرة آية/ 28 و 29.
[2] سورة البقرة آية/ 30.
[3] تفسير القرآن العظيم / جـ 1 ص 107.
[4] سورة الأنعام / آية 165.
[5] سورة النمل / آية 62.
[6] سورة فصلت / آية 11.

"ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك" فأخبرهم تعالى بقوله "إني أعلم ما لا تعلمون" فكان في علم الله تعالى أنه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنوا الجنة"[1].

ومن هنا نعلم مكانة الإنسان في ميزان الله تعالى فهو المسؤول المكلف برسالة عظمى وأمانة كبرى أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، كما قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[2].

لقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان ليقوم بواجب الخلافة في الأرض فقال سبحانه: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[3] فشرط الاستخلاف هو العمل بمقتضى هذا التكريم الإلهي فينشط في عمارة الأرض بما يوحيه حمله "في البر والبحر" وما يوجبه "ورزقناهم من الطيبات" فيستغل هذه الطاقات الممنوحة له في كل اتجاه ولكن على المستوى الكريم الرفيع وفي حدود التقوى والاستمداد من منهج الله تعالى.

وحين يحدثنا الله تعالى عن خلق الإنسان الأول يفصل لنا قصته ويحيطها بهالة من البيان والتعظيم والتكريم ليوحي لنا بهذه المنزلة الرفيعة للإنسان. . وللنظر إلى سياق قصة آدم عليه السلام وما فيها من المعاني من خلال آيات القرآن الكريم وأحدايث النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

1- فهو سبحانه يعلم الملائكة بخلق هذا الإنسان:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}[4].

وفي هذا تنويه بشأنه وخطر أمره ليستعدوا لهذا الكائن الذي يكون له شأن عظيم في هذا الوجود الكبير.

2- ثم تبدأ عملية الخلق والإيجاد لهذا الإنسان بيدي الله تعالى كما في قوله سبحانه: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}[5] على ما يليق به سبحانه. وكما جاء في حديث الشفاعة المروي في الصحاح والسنن "يا آدم خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء"[6]. ولا يخفى ما فيه من التشريف إذ المقام مقام بيان مزيته عند الله تعالى كي يشفع لخلقه.

---

[1] تفسير القرآن العظيم، جـ 1، ص 107.
[2] سورة الأحزاب / آية 72.
[3] سورة الإسراء / آية 70.
[4] صورة ص / آية 71.
[5] سورة ص / آية 75.
[6] قطعة من حديث طويل يسمى حديث الشفاعة. رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه / كتاب التوحيد / جـ 9 ص 149. ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – باب حجاج أدم وموسى صلى الله عليه وسلم، جـ 8 ص 49.

ثم هذا الخلق كان على أطوار كما قال سبحانه: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}[1].

وهذه الأطوار هي:

أ- طور التراب: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}[2] فالإنسان إبن هذه الأرض من ترابها نشأ {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[3].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[4].

وقال سبحانه: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[5].

ب- ثم جعل هذا التراب طيناً وذلك في قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ}[6] وقوله سبحانه: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[7] وقوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}[8] وهذا الطين أسود متغير وهو "الحمأ" وأملس وهو "المسنون" وذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[9].

جـ- ثم يبس هذا الطين صار يوصف بأنه صلصال أي يسمع منه صوت إذا نقر كما في قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}[10].

د- ثم سوى خلقه وصورته وجعله إنساناً كاملاً معتدل الأعضاء كما قال سبحانه: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[11].

وانظر سنن أبي داود رحمه الله تعالى – جـ 4 ص 226، وسنن الترمذي رحمه الله تعالى، جـ 4 ص 387. والبداية والنهاية جـ 1 ص 81 – ذكر احتجاج آدم وموسى عليهما السلام.

[1] سورة سيدنا نوح عليه السلام / آية 13 و 14.
[2] سورة الروم / آية 20.
[3] سورة طه / آية 55.
[4] سورة الحج / آية 5.
[5] سورة آل عمران / آية 59.
[6] سورة ص / آية 71.
[7] سورة السجدة / آية 7.
[8] سورة المؤمنون / آية 12.
[9] سورة الحجر / آية 26.
[10] سورة الرحمن / آية 14.
[11] سورة ص / آية 72.

وفي حديث رواه البخاري رحمه الله بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً. . .) وفي رواية الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كان طول آدم ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً)[1].

هـ- ثم نفخ فيه من روحه وذلك قوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} "أي أفضت عليه من الروح التي هي خلق من خلقي فصار بشراً حياً"[2]، وقال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى "{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} النفخ إجراء الريح في الشيء. والروح جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً كقوله (أرضي وسمائي) وناقة الله وشهر الله، ولم تكن لآدم عليه السلام قيمة إلا بعد نفخ الروح فيه وتحركه بها إذ هي محل التقديس والإكرام وهي اللطيفة الربانية والسر المكنون قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[3]. [4]

وبعد تمام خلقه أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له وذلك قوله تعالى: {إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} أي خروا له ساجدين سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة[5]. وقال سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[6] وقال سبحانه حكاية عن إبليس {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[7] ولم يكن إبليس من الملائكة على الصحيح[8] فتكبر وظن أن النار خير من الطين وسمي (إبليس) لأن الله تعالى أبلسه أي آيسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة[9].

ثم علّم الله تعالى آدم الأسماء كلها كما في قوله: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: "هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما سبق هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقب هذا ليبين

---

[1] البداة والنهاية لابن كثير جـ 1 ص 88 والحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه – باب- بدء الخلق / جـ 4 ص 160 – وفي المسند / جـ 2 ص 315 و 323 كما في مرشد المحتار إلى ما في مسند الإمام أحمد / جـ 2 ص 75.

[2] صفوة التفاسير جـ 2 ص 109.

[3] سورة الإسراء / آية 85.

[4]

[5] صفوة التفاسير، جـ 2 ص 109، الجامع لأحكام القرآن جـ 10 ص 18.

[6] سورة البقرة / آية 34.

[7] سورة ص / آية 76.

[8] أنظر: البداية والنهاية جـ 1 ص 73. وصفوة التفاسير جـ 1 ص 52.

[9] تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 112.

لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم"[1]. ثم ذكر أقوال السلف في ماهية الأسماء ورجح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذراتها وصفاتها وأفعالها وكبيرها وصغيرها مستدلاً بحديث الشفاعة وفيه (خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء).

ثم بعد ذلك: {عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[2] يعني عرض المسميات على الملائكة واختبرهم بمعرفتها وقوله: {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أي إن كنتم تعلمون أني لم أجعل في الأرض خليفة أعلم منكم، ولما بانت لهم الحكمة وعجزوا عن الجواب: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} فقال سبحانه عند ذلك مظهراً فضل آدم عليه السلام عليهم: {يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[3] أي أعلم الغيب الظاهر والخفي[4].

وهكذا فقد شاءة حكمة الله تعالى أن يخلق آدم كما وصف من غير أب ولا أم، وأن يخلق حواء من رجل هو آدم عليه السلام كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[5] وخلق عيسى عليه السلام من أم فقط وهي مريم، وخلق سائر الناس من أب وأم كما شاءت حكمته أن يخلق الملائكة من نور والجان من نار كما قال سبحانه: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}[6]. وفي حديث مسلم رحمه لله (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[7]. ولكن يبقى الإنسان ابن هذه الأرض فأصله تراب وهو عائد إليه كما قال ربنا سبحانه: {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[8]، وقال أيضاً: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}[9] ومن تراب الأرض تقوّت فالعناصر المكونة لجسم الإنسان لها نظيرها في عناصر الأرض اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله تعالى إياه ونفخه فيه من روحه وبه افترق عن عناصر الأرض ولكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلاً وغذاءً، القرآن الكريم فصّل مراحل حياة الإنسان بدءاً من خلقه من التراب إلى

---

[1] تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 108-110.
[2] سورة البقرة / آية 31.
[3] سورة البقرة / آية 33.
[4] تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 110.
[5] سورة النساء / آية 1.
[6] سورة الرحمن جل جلاله / آية 15.
[7] أنظر صحيح مسلم بشرح النووي، جـ 18 ص 123، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله جـ 8 ص 226 باب –أحاديث متفرقة-.
[8] سورة طه / آية 55.
[9] سورة سيدنا نوح عليه السلام / آية 17 و 18.

رجوعه إليه مرة أخرى في آية واحدة هي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[1].

ثم خاطب الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام بعد بيان فضله للملائكة بقوله: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[2] فكان هذا تكريماً آخر له ولزوجته حواء إذ أباح الله تعالى لهما الجنة إلا شجرة واحدة من أشجار الجنة نهاهما عن قربانها قال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن نقل ما ورد عن الصحابة والتابعين في اسم الشجرة هذه "ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين لأن الله تعالى لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة"[3].
وأعلم الله تعالى سيدنا آدم عليه السلام أن الشيطان عدو لهما فقال سبحانه: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}[4] ثم إن الشيطان وسوس لهما ودلاهما بغرور وأغراهما وذلك قوله تعالى: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}[5] فنسي آدم عهد الله تعالى فأكل هو وزوجته من الشجرة وذلك قوله تعالى: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[6] فندما على فعلتهما وتابا إلى الله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[7] وقال سبحانه في آية أخرى {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[8] ثم أمر تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

---

[1] سورة الحج / آية 5.
[2] سورة البقرة / آية 35.
[3] أنظر تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 118. وجاء في كتاب التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط لابن حيان الأندلسي –بع أن أورد أقوال أهل العلم في اسم الشجرة هذه- "وقيل شجرة لم يعلمنا الله ما هي وهذا هو الأظهر إذ لا يتعلق بعرفانها كبير أمر، وإنما المقصود إعلامنا أن فعل ما نهينا عنه سبب العقوبة" جـ1 ص 158.
[4] سورة طه / آية 117.
[5] سورة طه / آية 120.
[6] سورة الأعراف / آية 20-23.
[7] سورة البقرة / آية 37.
[8] سورة طه / آية 121 و 122.

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[1] والخطاب لآدم وحواء وإبليس[2] فالعداوة قائمة بينهما وذريتهما وبين إبليس إلى قيام الساعة حيث أخرجهما من الجنة بتسويله وتزيينه ولأنه أبلس من الخير فلا يرضاه لغيره وقراره واضح كما أخبر تعالى عنه {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[3] وكما في قوله: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[4].

وقوله تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} أي قرار وأرزاق وآجال إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم الساعة[5].

تلك هي قصة سيدنا آدم عليه السلام بصورة مختصرة من كتاب الله تعالى وهي حقيقة ثابتة. أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الموقنين بها إنه سميع مجيب.

---

[1] سورة البقرة / آية 36.
[2] صفوة التفاسير جـ 1 ص 51.
[3] سورة الحجر / آية 39 و 40.
[4] سورة الأعراف / آية 16 و 17.
[5] تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 118.

المبحث الثاني

الدنيا دار ابتلاء

منذ اللحظة الأولى لنزول آدم وحواء وعدوهما إلى الأرض بيّن سبحانه أن بقاءهم فيها مؤقت وأنهم في فترة بقائهم في اختبار وابتلاء. قال سبحانه: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[1] وقال سبحانه: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[2] وقال سبحانه: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}[3].

وقال سبحانه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[4]. وأنهم خلقوا للعبادة في الدنيا {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[5] فهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة وهي ابتلاء في حد ذاتها إذ من معانيها: "الطاعة، التذلل، الخضوع والانقياد"[6].

وفي بعض الآثار القدسية: (عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستيعن بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً وتذكروني كثيراً وتسبحوني بكرة وأصيلاً)[7].

وأوجه الابتلاء في هذه الحياة كثيرة متنوعة من أجلها كانت حياة الإنسان تعباً كما قال سبحانه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[8] "قال سعيد بن جبير: أي: في شدة وطلب معيشة. وقال الحسن البصري: أي: يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة. وقال ذو النون المصري: أي: لم يزل مربوطاً بحبل القضاء مدعواً إلى الائتمار والانتهاء"[9]. وبقراءة هذه الآيات يتبين لنا حجم الابتلاء وشدته: قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[10] وقال سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[11] وقال سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا

---

[1] سورة البقرة / آية 36.
[2] سورة البقرة / آية 38.
[3] سورة الأعراف / آية 25.
[4] سورة الملك / آية 2.
[5] سورة الذاريات / آية 56-58.
[6] ترتيب القاموس المحيط جـ 3 ص 135. والمختار من صحاح اللغة باب العين ص 323. ولسان العرب جـ 2 ص 665 –باب عبد.
[7] العبادة في الإسلام، ص 21.
[8] سورة البلد / آية 4.
[9] الأساس في التفسير، م 11 ص 6528.
[10] سورة الأنبياء عليهم السلام / آية 35.
[11] سورة البقرة / آية 155.

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[1] وقال سبحانه: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[2] وقال سبحانه: {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[3] وقال سبحانه: {وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ}[4] وقال سبحانه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[5]. وهكذا فإننا نجد عشرات الآيات تتحدث عن هذا الابتلاء بما يعممه في كل حركة نتحركها أو وقفة نقفها أو كلمة ننطق بها أو نهم بها نسأل الله تعالى معافاته ورحمته.

والقرآن الكريم إذا يعد الإنسان للآخرة يحذره من طاعة الشيطان ويذكره بقصة أبيه آدم عليه السلام {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[6].

وهكذا فالدنيا من اللحظة الأولى وإلى قيام الساعة هي دار ابتلاء فيها الفقر والغنى، والصحة والمرض، والحر والبرد، والسعادة والشقاوة فهي متقلبة بأهلها. . وعلى العاقل أن يتخذها مطية للدار الآخرة دار البقاء والاستقرار والحيوية والنعيم المقيم {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[7] وقال سبحانه: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[8]. وما أحسن ما قيل:

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطناً

جعلوها لجّة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً[9]

فلا يصح للعاقل أن يغتر بهذه الدار الفانية بعد تحذير الله تعالى له منها حيث يقول {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[1].

---

[1] سورة الكهف / آية 7.
[2] سورة آل عمران عليهم السلام / آية 186.
[3] سورة الأعراف / آية 168.
[4] سورة الدخان / آية 33.
[5] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم / آية 31.
[6] سورة الأعراف / آية 27.
[7] سورة الزلزلة / آية 7 و8.
[8] سورة البقرة / آية 281.
[9] مقدمة كتاب رياض الصالحين للإمام النووي رحمه الله تعالى، ص 9.

[1] سورة لقمان عليه السلام / آية 33.

المبحث الثالث

حقيقة الموت

الموت: ليس بعدم محض ولا فناء صرف وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيلولة بينهما وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار وهو من أعظم المصائب، وقد سماه الله تعالى مصيبة الموت في قوله: {فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ}[1]. فالموت هو المصيبة العظمى والرزية الكبرى[2] والذي تدل عليه الآيات والأخبار أن حقيقة الموت هو مفارقة الروح للجسد، وأن الروح تكون بعد ذلك باقية، إما معذبة وإما منعمة[3].

والموت باب الآخرة وأول منزل من منازلها كتبه الله تعالى على الخلق أجمعين فقال سبحانه: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ}[4]. وقال سبحانه: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[5]، وقال سبحانه: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[6] وقال سبحانه: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}[7] وقال سبحانه: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[8] وقال سبحانه وتعالى: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}[9].

وقد أجمع علماء الإسلام على أن الموت حق وأنه باب إلى الدار الآخرة قال الشيخ محمد أمين الكردي في كتاب تنوير القلوب "ومما يجب اعتقاده أن الموت ينزل بكل ذي روح لقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}، وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} والأحاديث في ذلك كثيرة، ولأنه من الجائزات عقلاً التي ورد بها الشرع فوجب اعتقادها"[10]. وقال الإمام النسفي رحمه الله تعالى "والموت قائم بالميت. مخلوق لله تعالى لا صنع للعبد فيه تخليقاً ولا اكتساباً"[11].

---

[1] سورة المائدة / آية 106.
[2] التذكرة، جـ 1 ص 15.
[3] مختصر منهاج القاصدين، ص 499.
[4] سورة النساء / آية 78.
[5] سورة الجمعة / آية 8.
[6] سورة آل عمران عليهم السلام / آية 185.
[7] سورة الأنعام / آية 61.
[8] سورة السجدة / آية 11.
[9] سورة الأحزاب / آية 16.
[10] تنوير القلوب للشيخ محمد الكردي، ص 53.
[11] شرح النسفية في العقيدة الإسلامية، ص 116. وانظر متن العقائد النسفية، ص 109.

إذن فسبب الموت هو أن الله تعالى أراد ولا رادّ لحكمه {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[1] أما الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا يقرون بصفاته ولا يؤمنون بالدار الآخرة فإنهم يحاولون أن يجعلوا من هذا الكون عالماً أبدياً لأفراحهم فبحثوا كثيراً عن أسباب الموت ليتمكنوا من الحيلولة دون وقوعها، من أجل تخليد الحياة، ولكنهم فشلوا وأخفقت دراساتهم بل توصلوا إلى ما يشبه اليقين بأنهم لن يظفروا بالخلود أبداً وهذا واضح فيما قاله الدكتور "ألكسيس كيرل" الذي بحث هذه المشكلة في مقال طويل تحت عنوان "الزمن الداخلي" فذكر الجهود المخفقة التي بذلت في هذا الصدد، ثم قال:

"إن الإنسان لن يسأم من البحث عن (الخلود) والسعي وراءه مع أنه لن يظفر به إلى الأبد، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة، إنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجي) لأعضاء الجسد، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً"[2].

وكثرت الأجوبة عن سبب الموت ولكنها انهارت أمام البحث والتمحيص ولم يبق إلا عجز الإنسان أمام تقدير الواحد الديّان سبحانه وتعالى، "فالموت سر من أخفى الأسرار، جعل الله ظواهره علانية من أجلى البديهيات، ولا نحتاج فيها إلى علوم ولا أديان، وإنما يموت كما نرى الإنسان، وفي حفير يوضع منه الجثمان، فإذا كنت ممن عقله في بطنه فهذه عنك هي النهاية، وفي الحفير لك من عقبال غاية، أما إذا كنت ممن عقله في رأسه فلا مصرف لك عن التفكر ثم التدبر ثم التفكير.

هي الأسرار بغية العاقل ومبتغى المفكر الفاضل

وههنا خابت الحواس الظاهرة فلم تع غير الظواهر، وأصفت العلوم على مدارج المعرفة دون العوالي البواهر، فما بقي غير الدين، والمصدر الوحيد يؤخذ منه في منطق العقلاء العالمين والعلماء العاقلين، وهو الطريق إلى المعرفة حيث تعي سائر الطرائق – أما الموت فهو نهاية حياة فانية في كوننا هذا وبداية حياة باقية في كون آخر نعقله من هنا لكن لسنا نراه حتى نرحل إليه، وأما الملحد فيقول: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}[3] وأما المؤمن فيقول: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}[4]،[5].

---

[1] سورة سيدنا يوسف عليه السلام / آية 21.
[2] الإسلام يتحدى، ص 74.
[3] سورة الأنعام / آية 29.
[4] سورة غافر / آية 39 و 40.
[5] مجمع الأشتات، ص 148.

وأنشدوا في بعض الشجعان مات حتف أنفه:

جاءته من قبل المنون إشارة فهوى صريعاً لليدين وللفم

ورمى بمحكم درعه وبرمحه وامتدّ ملقى كالفتيق الأعظم

لا يستجيب لصارخ إن يدعه أبداً ولا يرجى لخطب معظم

ذهبت بسالته ومرّ مرامه لما رأى حبل المنية يرتمي

يا ويحه من فارس ما باله ذهبت مروته ولما يكلم

هذي يداه وهذه أعضاؤه ما منه من عضو غدا بمثلم

هيهات ما حبل الردى محتاجة للمشرفيّ ولا اللسان اللهذم

هي ويحكم أمر الإله وحكمه والله يقضي بالقضاء المحكم

يا حسرتا لو كان يقدر قدرها ومصيبة عظمت ولما تعظم

خبرٌ علمنا كلّنا بمكانه وكأننا في حالنا لم نعلم[1]

[1] التذكرة، جـ 1 ص 16.

المبحث الرابع

استهداف القرآن إعداد الإنسان للآخرة

لما كانت الآخرة هي دار القرار للإنسان، والقرآن العظيم أنزل لهداية الناس وإسعادهم كما قال سبحانه وتعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}[1] وقال سبحانه: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[2].

وقال عزّ من قائل {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}[3] وقال سبحانه: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}[4] وقال سبحانه: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[5]. فمن البديهي أن يستهدف القرآن الكريم إعداد الإنسان للآخرة، فالقرآن الكريم يريد:

- الإنسان الأتقى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[6].
- ويريد الإنسان الذي يحقق العبودية لله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[7] العبادة التي تشمل كل دقائق الحياة وتفاصيلها بما يحقق رضا الله تعالى ويقي غضبه وعقابه.
- ويريد الإنسان المتبع لهدى الله سبحانه: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[8] ومن هذا الهدى يستمد منهج حياته وسلوكه بالصورة التي تنجيه في الدار الآخرة.
- ويريد من الإنسان أن يرتبط بخالقه ولا يتنكر له {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[9].
- ويريد الإنسان الذي يراقب الله تعالى في حركاته وسكناته وأقواله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[1].

---

[1] سورة البقرة / آية 185.
[2] سورة الإسراء / آية 82.
[3] سورة الإسراء / آية 9.
[4] سورة الإسراء / آية 89.
[5] سورة ق / آية 45.
[6] سورة الحجرات / آية 13.
[7] سورة الذاريات / آية 56.
[8] سورة البقرة / آية 38.
[9] سورة الانفطار / آية 6-8.

– ويريد الإنسان الصالح الذي يعمل الصالحات {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[2] وقال سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[3].

– ويريد الإنسان الذي تتوجه إرادته إلى بلاد الأفراح لينأى عن اعتبارات الدنيا ونيل ما فيها {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[4] {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[5] وقال سبحانه: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}[6].

– ويريد الإنسان الذي يطمع في أعلى النعيم الذي ما بعده نعيم بل لا قيمة لنعيم الآخرة كله إزاءه، ذاك هو لذة النظر إلى وجه الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[7] {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[8] {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[9] الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى الكريم كما ورد في الحديث الصحيح عن صهيب رضي الله عنه أنه قال: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجيرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، قال فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر بأعينهم[10]، وإذا نظرنا إلى آيات القرآن الكريم في هذا المعنى وجدناها تهدف إلى إعداد الإنسان للنجاة من النار والفوز بالجنان وهذا هدف كبير بل من أكبر أهداف القرآن الكريم. فالقرآن كله إعداد وتوجيه فَهِمَهُ مَن فهمه وجهله مَن جهله والله سبحانه وليّ التوفيق.

---

[1] سورة ق / آية 16-18.
[2] سورة النحل / آية 97.
[3] سورة فصلت / آية 46.
[4] سورة القصص / آية 77.
[5] سورة القصص / آية 83.
[6] سورة الشورى / آية 20.
[7] سورة الكهف / آية 110.
[8] سورة القيامة / آية 22 و 23.
[9] سورة سيدنا يونس عليه السلام / آية 26.
[10] أنظر صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى، جـ 1، ص 112. كتاب الإيمان – باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه. ومسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى جـ 4، ص 333. وسنن الترمذي رحمه الله تعالى – كتاب صفة الجنة – باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى جـ 7، ص 230. وسنن ابن ماجه رحمه الله تعالى – باب فيما أنكرت الجهمية، جـ 1، ص 67.

الباب الثاني

إعداد الإنسان من جهة الاعتقاد

وفيه فصلان:

الفصل الأول: عقيدة الإيمان بالله سبحانه

الفصل الثاني: عقيدة الإيمان باليوم الآخر

الباب الثاني

إعداد الإنسان من جهة الاعتقاد

الفصل الأول: عقيدة الإيمان بالله تعالى

تمهيد:

الإنسان موجود عاقل يلحظ ويدرك سائر الموجودات، وهو يستقصي أحوال ما يدرك ويستقرئ أوصافه وخصائصه، ويسعى بذلك إلى استنكاه ما أدرك واستزادة العلم به إجمالاً وتفصيلاً.

فمن ملاحظاته نظرته إلى الكون والإنسان والحياة التي قادته إلى التفكر في أصل نسأتها وتكوينها ومن ثم احتمال وجود منشئ وموجد يرجع إلى إرادته وقدرته صنع الكون وإبداع الإنسان ووهب الحياة. وقد مر في طريق تفكيره هذا بمراحل عديدة.

فتارة نسب خلق الموجودات الطبيعية إلى أجزاء وأبعاض من الموجودات الطبيعية ذواتها، فاتخذ الرب من الكواكب والشمس والقمر، وقد صرح القرآن الكريم عن هذه المرحلة في قصة سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام مع قومه وذلك في سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[1].

[1] سورة الأنعام / الآيات 74-83.

وتارة اتُّخذ الرب من الضياء والظلمة أو غيرهما من الظواهر الطبيعية وهذه واضحة في عقيدة قدامى المصريين والهنود.

وتارة من أنواع الحيوان أو أفراد الإنسان وقد بين القرآن الكريم هذه العقائد وفندها فقال سبحانه وتعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ}[1].

وقال سبحانه: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}[2].

وقال سبحانه: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[3]. وقال سبحانه: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[4].

وهكذا فإن القرآن الكريم ذكر هذه الأنواع من النوازع البشرية حول قضية الإيمان بقوة تدير أمر هذا الكون بعد أن صنعته وأبدعته، وكان من البشر من رفض هذه الأرباب والآلهة وعزا أمر إنشاء الكون والإنسان والحياة إلى الدهر أو المادة التي زعموا خلودها فاتخذوا منها آلهة فنسبوا إليها الأزلية والأبدية معاً أو الأبدية وحدها عند من اعتقد وجود الكون صدفة.

ثم سعا الإنسان في بحثه عن خالق الكون وواهب الحياة منزلة أخرى فترك المادة والطبيعة واستبعد أن يكون الجزء خالق الكل فأخذ يبحث عن الإله فيما وراء الطبيعة، فمنهم من هدى الله سبحانه فوصل إلى الإله الحق، ومنهم من حقت عليهم الضلالة فتاهوا عن الطريق السوي فأنكروا وجود الخالق أساساً وهؤلاء هم الملاحدة.

---

[1] سورة إبراهيم عليه السلام / آية 30.
[2] سورة النساء / آية 171-172.
[3] سورة المائدة / آية 17.
[4] سورة الأنعام / آية 71.

والقرآن الكريم وهو يعدّ الإنسان للدار الآخرة عالج قضية الإيمان بوسائل كثيرة متنوعة أعرض بعضها في أبحاث هذا الباب إن شاء الله تعالى.

الإيمان فطرة في النفس:

الله جل جلاله وعمّ نواله حقيقة هائلة كبرى بل هو أكبر الحقائق التي تملأ الكون برمّته، حقيقة تدرك آثارها الحواس والأذهان ويحسها الطبع والفطرة بغير موانة ولا تردد إلا أن يكون الطبع سقيماً فيه اعوجاج أو تكون الفطرة مريضة تعطلت فيها المسالك والأسباب

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم[1]

والفطرة سبيل مستحكمة راسخة في مسألة الإيمان بالله تعالى التي تضرب في أعماق الإنسان وفي أغواره فيحس بها إحساساً لا تقوى الأسباب والأساليب مهما تعددت أو اشتدت وعتت أن تصدها أو تستأصلها وتبددها تبديداً، وأي تقول خلاف هذه الحقيقة إن هو إلا اصطناع فاسد وزعم كاذب يختلقه الخراصون من مرضى الطبائع والأذهان أو قل هو إغفال كبير لحقيقة الفطرة في الإنسان تلك الفطرة التي يكون من مقتضياتها الذاتية والمطبوعة الإيمان بالله تعالى.

يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[2].

ذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى اختلاف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة فقال: اختلف العلماء فيها على أقوال متعددة، منها: الإسلام، والبداءة التي ابتدأهم الله عليها، أي على ما فطر الله عليه خلقه من أنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاء وإلى ما يصيرون إليه عند البلوغ. وقالت فرقة: ليس المراد بقوله تعالى: {فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} ولا قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة)[3] العموم وإنما المراد بالناس المؤمنون، إذ لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد. قالوا: والعموم بمعنى الخصوص كثير في لسان العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ

---

[1] بردة المديح.

[2] سورة الروم / آية 30.

[3] أنظر صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ2 ص 111، كتاب الجنائز –باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام-، ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بألفاظ متعددة متفقة في المعنى. أنظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ 16 ص 207، وصحيح مسلم جـ 8 ص 52 و 53 – كتاب القدر-باب – كل مولود يولد على الفطرة-، وسنن الترمذي رحمه الله، جـ 4 ص 389 الباب 5 – ما جاء كل مولود يولد على الفطرة، وسنن أبي داود جـ 4 ص 229 و 230 باب في ذراري المشركين.

نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[1] ولم تدمر السماوات والأرض، وقوله تعالى: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[2].

ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة الإلهية ولا أبواب الهداية الربانية.

وقال طائفة من أهل الفقه والنظر: الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفته.

إذن قولي الإيمان فطرة أعنى به ما ذهبت إليه الطائفة الذين قال عنهم القرطبي أنهم أهل فقه ونظر. منهم أبو عمرو بن عبدالبر وابن عطية وشيخ القرطبي أبو العباس[3].

ومنبع هذه الفطرة ذلك العهد المشهود الذي أخذه الله تعالى من ذرية بني آدم والذي أشارت إليه الآية الكريمة من سورة الأعراف وهي قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}[4], ولأن هذا العهد مؤكد ومفطور عليه الإنسان فإن الله سبحانه قطع الطريق على الإنسان أن يدعي الغفلة أو يلقي اللوم على غيره من المبطلين وهذا واضح من المقطع الأخير من الآية والتي تليها {أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}[5].

وبذلك فإن الإيمان بالله إلهاً واحداً خالقاً موجداً يأتي مرادفاً للفطرة أو أن من المقتضيات التلقائية التي تتلازم تلازماً لا يتخلف مع الفطرة بمعنى الخلقة وهو تلازم يوافق طبيعة الإنسان ويتواءم مع أصالته الذاتية الراسخة في الصميم[6].

والإحساس بحقيقة الإيمان المركوز في الحقيقة البشرية يتضح غاية الوضوح عندما تحيق الأهوال بالإنسان أو تزلزله الأحداث فتنذره بالموت، فإذا بالإنسان يلجأ إلى الله تعالى لا لغيره ليكشف بلواه ويرد عنه شدة الأهوال، قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ

---

[1] سورة الأحقاف / آية 25.
[2] سورة الأنعام / آية 44.
[3] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي بتصرف، جـ 14 ص 18-20.
[4] سورة الأعراف / آية 172.
[5] سورة الأعراف / آية 172 و 173. .
[6] الإنسان في الإسلام ص 81.

الْإِنْسَانُ كَفُورًا}[1]. وقال سبحانه: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[2]، والدعاء مخ العبادة والعبادة أعظم مظهر من مظاهر الإقرار للمدعو وهو الله سبحانه وتعالى، ويقول سبحانه في آية أخرى {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}[3].

فالفطرة لا ولن تستأصل لكن قد يخفت صوتها في النفس أو يكبتها الإنسان عمداً في ساعات الدعة والراحة والرخاء فإذا نزلت النوازل وانقطعت الأسباب وغاب الأمل والرجاء هنالك ينطلق هذا الصوت بكل قوة متجهاً إلى الخالق منيباً ضارعاً، "سأل رجل الإمام جعفر الصادق –رضي الله عنه– عن الله تعالى فقال: ألم تركب البحر؟ قال: بلى. قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم. قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم. قال: فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم. قال: فذلك هو الله"[4] جل جلاله وعمّ نواله.

ويقول ارنست رينان في تاريخ الأديان: "إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية"[5].

إن أعظم القوى في الأرض لن تستطيع نزع هذه الفطرة من الإنسان مهما مارس الظالمون والطغاة من أساليب القهر والمنع والصد والإرهاب، فلا جرم أن تؤول هذه الوسائل إلى الفشل والخذلان، أو تذيق النفس البشرية ألواناً من العذاب يكون أدناها الاختلاف في ميزان الشخصية أو الانحراف في الطبع والسلوك. لقد تواردت الأنباء متواترة وأثبتت الدراسة متعاقبة على فشل النظام الماركسي الملحد الذي مارسة السوفييت في حمل الإنسان منذ الطفولة على نكران الله تعالى وهذا أعظم دليل وأكبر برهان على صدق الإيمان الغلاب المركوز في الإنسان، فعلى الرغم من الجهود المضنية والكبيرة التي بذلك في التربية والتعليم والإعلام ووسائل القهر والقمع والإرهاب واتخاذ الأسباب المصطنعة في الإقناع والأموال الطائلة التي أنفقت في هذه السبل فإن الناس في هذه البلاد وغيرها ما فتئوا مؤمنين بالله تعالى مستجيبين لنداء الفطرة المتدينة، وستظل الشعوب

---

[1] سورة الإسراء / آية 67.
[2] سورة سيدنا يونس عليه السلام / آية 12.
[3] سورة سيدنا لقمان عليه السلام / آية 32.
[4] العبادة في الإسلام، ص 5.
[5] الدين، ص 87.

تؤمن بالله تعالى على الرغم من الأساليب الثقال في القمع والترهيب والخداع وعلى الرغم من الوسائل الكثيرة من الدعاية والنشر والإعلام وذلك من خلال الصحافة والمذياع والتلفاز والتعليم الإلزامي في مدارس الدولة التي تحمل الطالب حملاً على اتباع الإلحاد واجتراره اجتراراً وخنق الإيمان وكتمه. سيظل الإيمان بالله تعالى عنصراً من عناصر التكوين الفطري للإنسان فلا قوام للإنسان دون الاستناد إلى هذا العنصر الأساس، وهذا هو مصداق قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: (واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمَرَتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً)[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام (ما من مولود إلا يولد على الطفرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء) ثم يقول أبو هريرة: واقرؤا إن شئتم {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} وفي رواية: حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: الله أعلم بما كانوا يعملون)[2] يدل على أن الإيمان الحق المتمثل في إسلام الوجه لله تعالى هو فطرة من الله تعالى أما العقائد المحرفة الأخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهي من تلقين الآباء والأمهات.

وستظل الأنفس الإنسانية تشعر بالألم وتحس بالجوع والظمأ حتى تجد الله تعالى ووتتوجه إليه، هنالك تستريح من عناء ونصب، وتروتوي من ظمأ، وتأمن من خوف وكأنهاالمقصودة بقول القائل:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

هناك تشعر ببرد اليقين يثلج حنايا القلوب ويكشف الحجاب عن البصيرة والبصر فيبلغ مقام الشهود وكأنها القائلة (ومتى غاب ربي حتى يحتاج إلى دليل) فقد ذكروا أن الإمام الرازي أقام آلية عقلية كثيرة على وجود الله تعالى فلما قيل لعجوز ان هذا الإمام أقام ألف دليل ودليل على وجود الله تعالى قالت: (ومتى غاب ربي حتى يحتاج إلى دليل) فبلغ قولها الإمام قدعا قائلاً: (اللهم إيماناً كإيمان العجائز).

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي، جـ 17 ص 197، وهو قطعة من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم رحمه الله في باب –الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار- جـ 8 ص 158 و 159.

[2] أنظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 2 ص 111 – كتاب الجنائز – باب – إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام. وصحيح الإمام مسلم ورواه بألفاظ متعددة متفقة في المعنى جـ 8 ص 52 و 53 كتاب القدر – باب – كل مولود يولد على الفطرة. وسنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4 ص 389 – الباب 5 – ما جاء كل مولود يولد على الفطرة. وسنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4 ص 229 و 230 – باب – في ذراري المشركين.

الإيمان والعقل

صنوان متلازمان لا يكادان يفترقان: العقل والإيمان، والتلازم راجع إلى ما بينهما من علاقة السببية، فالعقل أساس للإيمان، والإيمان ثمرة من ثمرات العقل السليم، والقرآن الكريم وهو يعد الإنسان للدار الآخرة يجعل من البرهان العقلي طريقاً إلى الإيمان الحق فيذكره ضمن الأدلة والبراهين على أصل وجود الخالق وبيان صفاته. ومن ثم كثيراً ما نقرأ في القرآن الكريم من نفي العقل عن الكافرين والملحدين يقول الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[1]. ويقول سبحانه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[2] ويقول سبحانه: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[3] وقال سبحانه: {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}[4] ويقول سبحانه حكاية عن الكافرين أنفسهم {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[5]. وبيّن الذين أوتوا العلم: أن العقل أساس النقل. والنقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح[6]. ويقول الدكتور عبدالله النقشبندي: "وفي خضم هذه العقائد المتنافرة التي من بينها العقيدة الجانحة جنوحاً شديداً إلى الإلحاد وإنكار وجود الخالق، أمسى الإنسان العاقل اليوم أشد حاجة منه في أي عصر مضى إلى براهين عقلية موصلة إلى اليقين لا يجحدها إلا باقل ينكر ويستنكر البراهين على الإطلاق"[7]. بل جعل البرهان العقلي من أرقى الأدلة العلمية للخائضين مفاوز البحث في شأن مكون الكائنات جل جلاله وعمّ نواله فقال في معرض تعداد الطرق في خطة المهايع المفتوحة للعلم والمعرفة والتجربة والاستنباط والاستدلال والبرهان. 2- طريق البرهان العقلي: وهو من الأدلة ما يقطع الشك لانبنائه على ما يجزم العقل بصحته. فهو أرقى الأدلة العلمية وصنفها المميز على سائر الأصناف[8]، وقال في موضع آخر "وإنما نحن بصدد البرهان العقلي وحده لأنه وحده القاطع في ما نحن فيه دون احتياج إلى مقدمات خارج العقل"[9]. وقال الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد النسفي المتوفى سنة 537:

---

[1] سورة الأنفال / آية 22 و 23.
[2] سورة الأنفال / آية 55.
[3] سورة الأعراف / آية 179.
[4] سورة الفرقان / آية 44.
[5] سورة تبارك / آية 10.
[6] الإيمان والحياة، ص 49.
[7] مجمع الأشتات الكتاب الأول – الرفيق الأعلى – ص 20.
[8] المصدر نفسه، ص 26 و 27.
[9] المصدر نفسه، ص 38.

"وأسباب العلم للخلق ثلاثة، الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل"[1]. وقال الشيخ سعيد حوى رحمه الله: "إن الطريق إلى الله هي آثاره التي تدل عليه وهي طريق وحيد، والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق، إذ بدون عقل لن تعرف الآية، وبدون فكر لن يعرف صاحبها، وبدون علم لن تكون معرفة للآية أو لصاحبها"[2]. ويقول الدكتور أمير عبدالعزيز: "ودور العقل في هذه القضية عظيم، وهو موضع اعتبار الإسلام وتعظيمه ليكون في الدرجة الأولى من الأهمية والفعالية والعطاء ومن الوصول بالإنسان إلى مداخل الحق والخير وتمكينه من أسباب استيعاب الحقائق التي تملأ أرجاء هذا الكون المعمور وفي طليعتها حقيقة الإيمان بالله"[3]. . ومما يدل على مكانة العقل في الإسلام ما يأتي:

1- العقل شرط لصحة التكليف فلا تقرأ عن حكم شرعي إلا وجدته مبنياً على وجود العقل وسلامته[4]. "وأساس التكليف هو العقل والفهم، فالعقل المدرك الفاهم هو عماد التكليف"[5].

2- ذكر القرآن الكريم لفظ العقل ومشتقاته أكثر من أربعين مرة.

بعد أن بينت الأقوال المارة مكانة العقل في التشريع الإسلامي آن لنا أن نحيط بماهية العقل بتعريف جامع له، وقد ذكر أهل اللغة تعريفه ما يلي:

"العقل مصدر عقل وهو الحجر، الربط، الملجأ، والحصن. قال ابن الأنباري: رجل عاقل أي جامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. وقيل: العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وقيل: العقل هو التثبت في الأمور، وهو الذي يعقل صاحبه عن التورط في المهالك. والمعقول هو ما تفعله بقلبك فالعقل بهذه المثابة هو القلب، والقلب هو العقل. كما قيل العقل هو التمييز وبه يفترق الإنسان عن سائر الأحياء، وبه يفهم الإنسان ما لا يفهمه الحيوان. وقيل المرأة تعاقل الرجل أي تساويه في الدية. والعقيلة هي المرأة الكريمة، وعقيلة البحر هي الدرة. ولذلك قيل عقيلة القوم: سيدهم[6]، وجاء في المنجد – عقل – أي أدرك. يقال: "ما فعلت منذ عقلت" أي منذ أدركت. والعاقل جمعه عقلاء وعاقلون عقال: المدرك، الفاهم، الحكيم. واعتقل الشاة: وضع رجلها بين فخذه وساقه فاحتلبها. وعقلت القتيل أعطيت ديته، وعقلت عنه: لزمته دية فأديتها عنه "والدية على العاقلة" واعتقل من دمه أخذ العقل[7]. هذه بعض تعاريف

---

[1] العقائد النسفية، ص 29.
[2] كتاب (الله جل جلاله) ص 14.
[3] الإنسان في الإسلام، ص 83.
[4] مغني المحتاج جـ 1 ص 130 و 131.
[5] أنظر: الإحكام في أصول الأحكام جـ 1، ص 114. فقد جاء فيه "اتفق العقلاء على أن شرط المكلف أن يكون عاقلاً فاهماً لأن التكليف خطاب، وخطاب من لا عقل له ولا فهم محال" ا. هـ - وانظر: أصول الفقه –للشيخ محمد زهرة ص 314.
[6] لسان العرب، م 2 ص 845.
[7] أنظر ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة جـ 3 ص 277. وأساس البلاغة ص 430 و 431.

أهل اللغة. . أما في اصطلاح علماء الكلام فقد عرفه الإمام النسفي بقوله "هو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات وهو المعني بقولهم غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات وقيل هو جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة"[1].

وقال الإمام الغزالي "العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان:

الأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم.

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال أنه عاقل.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً"[2].

وقال أيضاً:

"أما العقل فيطلق ويراد به النفس الإنسانية. الصفة النفسية، وهو بالنسبة إلى النفس كالبصر بالنسبة إلى العين، وهي بواسطته مستعدة لإدراك المعقولات كما أن العين بواسطة البصر مستعدة لإدراك المحسوسات"[3].

"وقيل أنه معرفة، وضعها الله في العبد تزيد وتتسع بالعلم المكتسب الدال على الضار والنافع"[4].

ومن النظر في هذه التعاريف وغيرها نفهم الحكمة الربانية في جعل العقل مناط التكليف حتى قال العلماء: إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب. فالعقل هبة الله تعالى للعقلاء والحمد لله رب العالمين.

---

[1] شرح القاعئد النسفية ص 41.
[2] إحياء علوم الدين، جـ 1 ص 85 و 86.
[3] معارج القدس في مدارج النفس ص 18 بتصرف يسير.
[4] العقل في مدرى التاريخ قبل الإسلام وبعده، ص 29.

طريقة القرآن الكريم

في توصيل العقل إلى الإيمان بالله تعالى

للقرآن الكريم طريقته المثلى في توصيل العقل إلى الإيمان بوجود موجد الكائنات ومبدعها جل جلاله وعمّ نواله. وذلك بتوجيه العقل للتفكر والتدبر في آيات الله تعالى وعجائب قدرته في هذا الكون. بل يجعل القرآن الكريم التفكير فريضة لازمة وسنة متبعة حتى ينهض العقل من عقاله ويفيق من سباته. فقال سبحانه وتعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[1].

وقال سبحانه: {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}[2].

وقال عزّ من قائل {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[3].

ففي هذه الآيات وغيرها تصريح بأن التفكير مأمور به والأمر للوجوب على رأي جمهور الأصوليين[4]. ومما يؤكد هذا الوجوب أن الله سبحانه وتعالى أنذر بالويل من ترك التفكير في آياته سبحانه وتعالى المنثورة في أرجاء الكون الواسع فقال سبحانه: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[5]. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار، وأشجار، ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومناع مختلفة الألوان، والطعوم والروائح والخواص، {وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي تعاقبهما، وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا قال تعالى: {لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون[6]. ثم أورد ابن كثير رحمه

---

[1] سورة سيدنا يونس عليه السلام / آية 101.
[2] سورة سبأ / آية 46.
[3] سورة النحل / آية 10 و 11.
[4] أنظر: علم أصول الفقه – للشيخ عبدالوهاب خلاف، ص 195، وأصول الفقه – للشيخ أبي زهرة، ص 168، والوجيز في أصول الفقه، ص 294.
[5] سورة آل عمران عليهم السلام / آية 190 و 191.
[6] تفسير القرآن العظيم، ج 1 ص 621.

الله تعالى روايات لفضل التفكر والتدبر في آيات الله تعالى وروايات في الإنذار بالويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها فقال: "قال ابن مردويه: حدثنا علي بن إسماعيل حدثنا أحمد بن علي الحراني حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطي حدثنا أبو مكرم عن الكلبي وهو أبو حباب عن عطار قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر "زر غباً تزدد حباً" فقال ابن عمر: ذرنا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال: (ذريني أتعبد لربي عز وجل) قالت: فقلت والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبد ربك. فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل علي في هذه الليلة {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ})، ثم قال: (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) قال ابن كثير وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه"[1].

وقال سبحانه: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}[2].

وقال سبحانه: {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}[3].

فهؤلاء يجحدون نعمة العقل ولا يتستعملونه فيما خلق له فيمرون على الآيات الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته معرضين فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة في الآفاق. بل حتى الذين يؤمنون فكثير منهم يدخل الشرك في صورة من صوره إلى قلوبهم لأن الإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة العقل ليتدبر ويتنور، ومن ثم استحق هؤلاء عذاب الله تعالى وغضبه فلا ينتظرون إلا ذلك العذاب ومن هنا قال سبحانه وتعالى عقيب هذه الآيات {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[4]. ثم يبين القرآن الكريم أن تعطيل العقل عن وظيفته وهي التفكير يهبط بالإنسان إلى مستوى أقل بكثير من مستوى الحيوان وهو الذي حال بين الكثيرين وبين الوصول إلى برد اليقين وعين الحقائق في

---

[1] تفسير القرآن العظيم، جـ 1 ص 625.
[2] سورة سيدنا يوسف عليه السلام / آية 105 و 106.
[3] سورة يس / آية 46.
[4] سورة يوسف عليه السلام / آية 107.

الآفاق والأنفس، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[1].

وقال سبحانه: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[2]، جاء في الظلال {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} وفق سنته الماضية وهي أن يحسن الإنسان استخدام مواهبه البدنية من حواس ومشاعر ومدارك وذلك بتوجيهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به من آيات وبينات فإن الإنسان عندئذ يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه ويستغلق عقله وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود فإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء. {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر يجعل الرجس عليهم. والرجس أبشع الدنس الروحي، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر وانتماؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران[3].

إن الإكثار من ذكر العقل والفكر والعلم في الرقرآن الكريم دليل آخر على الحقيقة القرآنية وهي أن الإيمان والعقل صنوان متلازمان لا يكادان يفترقان وهذا الإكثار ظاهرة تستلفت النظر بشكل بارز {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[4] {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[5] {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[6] {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}[7].

وللوقع الشديد لهذه الآيات على النفس الإنسانية من حيث اهتمامها ببيان منزلة التفكير ومكانته ولما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورايات تذكر مكانة التفكر والتفكير كقوله عليه الصلاة والسلام (لا عبادة كالتفكير)[8]. فقد وردتنا آثار عن السلف الصالح رضي الله عنهم تؤكد منزلة التفكير في الفكر الإسلامي وأنه طريق إلى الإيمان وعبادة الواحد الديّان. فقد ورد أن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال "فكرة ساعة خير من قيام ليلة". وكذلك ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه[9]. . وهكذا فإن الإنسان إذا اعتقد أن

---

[1] سورة الأعراف / آية 179.
[2] سورة سيدنا يونس عليه السلام / آية 100.
[3] في ظلال القرآن، جـ 4 ص 477-478 بتصرف.
[4] سورة النمل / آية 52.
[5] سورة النحل / آية 11.
[6] سورة الرعد / آية 4.
[7] سورة الروم / آية 22.
[8] أخرجه ابن حبان رحمه الله تعالى، أنظر: كنور الحقائق في حديث خير الخلائق المطبوع بهامش الجامع الصغير، جـ 2 ص 169.
[9] إسلامنا، ص 18.

التفكير عبادة جال في هذا الكون وقلّب فيه بصره وبصيرته وتأمل في آيات الله تعالى المبثوثة في السماوات والأرض فوصل إلى الله تعالى. . .

ميادين التفكير

كثيرة هي المجالات التي يطيق العقل التفكر والتجوال فيها، والإسلام حين دعا إلى التفكير أرد أن يكون ضمن نطاق العقل لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلى وسعها، وكما تبين مما سبق، فإن التفكير تكليف ومن ثم فلا تكليف إلا بمقدور، ومن هنا فإن الإسلام حظر التفكير في ذات الله تعالى لأن ذات الله تعالى فوق الإدراك فقال تعالى: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}[1]. وقال سبحانه: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[2]. وقال سبحانه: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[3]. وقال القرطبي رحمه الله: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} بيّن سبحانه أنه منزّه عن سمات الحدوث ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد، كما تدرك سائر المخلوقات، وقيل لا تدره أبصار القلوب، أي لا تدركه العقول فتتوهمه إذ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[4]. وقال في قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} الهاء في {بِهِ} لله تعالى، أيّ أحد لا يحيط به علماً، إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد[5]. . وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) وفي رواية أخرى (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا) وفي ثالثة (فإنه لا تحيط به الفكرة)[6]. فهذه نصوص نبوية تحذر من التفكير في ذات الله تعالى، لأن الإنسان مجدود في طاقاته وقدراته وهو لا يجاوز مداه المقدور له، والله سبحانه وتعالى لا تحده الحدود كما تبين سابقاً فأنى للمحدود أن يدرك اللامحدود. وما تجرأ أحد على إقحام نفسه وتفكيره في ذات الله تعالى إلا هلك وأهلك مصداقاً لقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، ويتمثل هلاكه في الجنوح والتطرف القائد إلى الشك والانحراف والارتكاس المدمر والتردي في الشرك والكفر والعياذ بالله تعالى. وبناءً على هذا فإن الطريقة السليمة التي يعتمدها الإسلام في إيصال العقل إلى الله تعالى هي البدء من القاعدة أي إعمال العقل في آيات الله تعالى المبثوثة في أرجاء هذا الكون، ليتسنى الوصول إلى القمة أو الحق وهو الله جل جلاله، فإذا تدبر العقل وتفكر طويلاً في ملكوت الله سبحانه وفي تركيبة هذا الكون الزاخر المعمور وصل إلى التصديق المطمئن بوجود الخالق المهيمن العظيم. والقرآن العظيم فيه

---

[1] سورة طه / آية 110.
[2] سورة الأنعام / آية 103.
[3] سورة الشورى / آية 11.
[4] الجامع لأحكام القرآن، جـ 7 ص 37.
[5] الجامع لأحكام القرآن، جـ 11 ص 164.
[6] الحديث رواه ابن أبي شيبة في كتابه العرض، والأصبهاني في ترغيبه، وأبو نعيم في الحلية ترجمة عبدالله بن سلام، والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، والبيهقي في الشعب، وله شاهد في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى. أنظر: المقاصد الحسنة للسخاوي ص 159، مطبعة دار المثنى – بغداد سنة 1375 هـ - 1956 م، وكذا في كشف الخفاء للعجلوني، طبعة مؤسسة الرسالة جـ 1 ص 371.
ويشهد له ما رواه لإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل آمن بالله) أنظر صحيح مسلم جـ 1 ص 83 و 84 – كتاب الإيمان – باب بيان الوسوسة وما يقوله من وجدها-.

آيات كثيرة تصور الميادين الواسعة التي يقود التفكير فيها إلى الله سبحانه وتعالى، فمنها: قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[1].

قال القرطبي رحمه الله: "قال عطاء لما نزلت {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} قالت كفار قريش هل من دليل على ذلك؟ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ} فكأنهم طلبوا آية فبين لهم دليل التوحيد، وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بد له من بانٍ وصانع. فآية السماوات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها ودلّ ذلك على القدرة وخرق العادة. ولو جاء نبي فتحدى بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزاً. ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة شارقة وغاربة نيرة وممحوة آية ثانية.

وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وأشجارها وسهلها ووعرها.

ووجه الآية في الفلك: تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع ثقلها. {بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ} أي بالذي ينفعهم من التجارات وسائر المآرب التي تصلح بها أحوالهم. {وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ} يعني بها الأمطار التي بها إنعاش العالم وإخراج النبات والأرزاق وجعل منه المخزون مدة للانتفاع في غير وقت نزوله كما قال تعالى: {فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ}[2].

{بَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ} أي فرّق ونشر. ودابة تجمع الحيوان كله. وقد أخرج بعض الناس الطير وهو مردود قال تعالى: {ومَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}[3] فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته، قال الأعشى: دبيب قطا البطحاء في كل منهل.

{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ} إرسالها عقيمة وملقحة، وصراً ونصراً وهلاكاً، وحارة وباردة، ولينة وعاصفة. وقيل تصريفها إرسالها جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصبا، ونكباء وهي التي بين مهبي ريحين. {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} سمي سحاباً لانسحابه في الهواء. والمسخر: المذلل، وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر. قوله: {لَآيَاتٍ} أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته ولذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} ليدل على صدق الخبر عما ذكره قبله من وحدانيته سبحانه وذكر رحمته ورأفته بخلقه"[4].

---

[1] سورة البقرة / آية 164.
[2] سورة المؤمنون / آية 18.
[3] سورة هود / آية 6.
[4] الجامع لأحكام القرآن جـ 2 ص 128-135 بتصرف.

هذه الطريقة في توجيه الحواس والمشاعر والعقول كفيلة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التي تغيب عن بعض الأذهان روعتها وجلالتها بسبب ألفتها، فلو ألقى الإنسان عن عقله وقبله الألفة والغفلة ثم استقبل الكون بنظرة مستطلعة لاستوقفته كل حركة وهزّ كيانه كل عجيبة فامتلأت جوانحه بأنوار الإيمان وبشاشة اليقين.

وقال سبحانه: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[1].

وقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[2].

قال سيد قطب رحمه الله بعد أن سلط الأضواء على آيات الله تعالى في الأرض من بسطها وانقسامها وإرساء الجبال الثوابت عليها وخط الأنهار الجارية في الأرض وما تحتويه الأرض من خيرات ونعم والإشارة إلى حقيقة لم تكن معروفة للبشر حتى نزول القرآن الكريم وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكور تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} وتعاقب الليل والنهار حادث تهوّن الألفة من وقعه على الحس ووجود القطع المتجاورة في الأرض منها الطيب الخصب ومنها السبخ النكد ومنها المقفر الجدب ومنها الصخر الصلد، ثم تتبعها تفصيلات حول جنات الأعناب والزروع والنخيل والتمثيل لمختلف أشكال النبات والكل يسقى من ماء واحد ويتغذى من تربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم ويفضل الله سبحانه بعضها على بعض في الأكل. فمَن غير الخالق المدبر المريد يفعل هذا وذاك؟ حقاً إنها جولة هائلة في آفاق الكون الفسيحة يعود منها الإنسان مؤمناً بالله تعالى رباً وخالقاً تجب له صفات الكمال وينزهعن كل صفة من صفات النقصان

[1] سورة ق / الآيات 6-11.
[2] سورة الرعد / آية 3 و 4.

يعود منها الإنسان تعجباً من قوم لا توقظ هذه الآيات قلوبهم، ولا تنبه عقولهم ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر وكأن قلوبهم مقيدة، فلا تنطلق للتأمل[1].

ويدعو القرآن الكريم العقل الإنساني إلى التفكر في الإنسان نفسه وهذه الدعوة صريحة في الآيات الآتية:

يقول الله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[2]، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[3]، ويقول سبحانه: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}[4]، ويقول سبحانه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[5]. فالآيات هذه تدل العقول على هذا الميدن الواسع، فالإنسان إذا فكر بما جعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفة. كان تراباً ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ولحماً كما قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ} ثم مرّ بأطوار متعددة بعد أن استقر في الرحم خرج طفلاً ثم بلغ أشده ثم شيخاً وكهلاً كما قال سبحانه: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}[6]. فالإنسان لغز محير، وقد أحسن من قال:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

"ففي جسم الإنسان ألف مليون مليون خلية، ويستهلك الجسم من خلاياه حوالي 125 مليون خلية في الثانية الواحدة، وعدد خلايا الجملة العصبية المركزية (المخ والمخيخ والجذع الدماغي) يقدر بحوالي 14 مليار (ألف مليون) خلية عصبية، تسيطر على نشاط البدن وفعاليته، ويكمن فيها النشاط الفكري والشخصية الإنسانية"[7]. وفي أنسجة الخليا العصبية يجري نظام استقبال وإرسال للأخبار، بسرعة سبعين ميلاً في الساعة. وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا، بل إن هناك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة ولكل منها سلك عصبي خاص متصل بالمخ، وبواسطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة. وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا يسمع مخنا. وفي كل

---

[1] في ظلال القرآن – سيد قطب جـ 5 ص 73 بتصرف.
[2] سورة الذاريات / آية 20 و 21.
[3] سورة الانفطار / الآيات 6-8.
[4] سورة الطارق / الآيات 5-7.
[5] سورة التين / آية 4.
[6] سورة الحج / آية 5.
[7] الطب محراب الإيمان، ص 40 و 42 و 96 بتصرف.

عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ[1]. فسبحان الذي خلق الإنسان وجعل له السمع والبصر والفؤاد فقال {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}[2]. وقال سبحانه: {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[3] فأي جزء اخترت من الإنسان أو أي عضو من أعضائه دل ذلك على الله تعالى وقدرته العجيبة.

خذ جلد الإنسان مثلاً: ستجد هناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد الجلد، فإذا قربت إلى الجلد شيئاً حاراً فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ، وإذا قربت إليه شيئاً بارداً فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة تحس به، وعندئذ يمتلئ المخ بأثرها ويرتعد الجسم وتتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة. وإذا أحست الخلايا بحرارة شديدة فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية تلقائياً عرقاً بارداً إلى خارج الجسم[4]. وفي الجلد مسامات وهي عبارة عن ثقوب صغيرة يخرج منها العرق ليرطب الجلد ويحميه من التشقق، والعجيب أن هذه المسام تسمح بخروج العرق من الجسم ولا تسمح برجوعه إليه، إن خلف كل مسام يوجد صمام يفتح عند خروج الماء من الجسم ويغلق عند محاولة دخول الماء إلى الجسم، ولو سمح بدخول الماء إلى الجسم لامتلأ جسم الإنسان ماء بمجرد أن يسبح في البحر فيغرق ويموت. وجلد الرأس هو أغلظ جلد في الإنسان، حتى يحمي الرأس من الصدمات. وعظام الجمجمة تتركب من طبقات وبينها طبقات هوائية وذلك حتى تقوم الطبقة العليا بامتصاص الحرارة ويقوم الفراغ الهوائي بتلطيف الجو وعزل حرارة الشمس عن الطبقة الداخلية وذلك لحماية المخ من حرارة الجو[5].

فالكون بما فيه من مخلوقات شاهد على وجود الباري جل جلاله وعم نواله. وهذه حقيقة بل بديهة عقلية لا مناص من الإقرار بها ولكن القلوب تعمى والعياذ بالله تعالى فيجحد الإنسان وجود الخالق كما قال سبحانه: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[6] وكما عمى القلوب فإن بقية الحواس أيضاً تبقى عاجزة فلا تعي عن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون من مواعظ وعبر، والآية الآتية تصور هذه الحقيقة

---

[1] الإسلام يتحدى، ص 54.
[2] سورة الدهر / آية 2.
[3] سورة تبارك / آية 23.
[4] الإسلام يتحدى، ص 54.
[5] هذه عقيدتك يا ولدي، ص 46-48.
[6] سورة الحج / آية 46.

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}[1] وكما قال جل جلاله وعم نواله {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[2].

نرى لو نسب إنسان إلى مجنون، أصم، أعمى، أخرس صناعة الرادار ألا يشك في عقله؟ بل يجزم بجنونه. أو ليس الذي ينسب هذه الآيات الدالة على الله تعالى المبثوثة على صفحات هذا الكون إلى المادة الصماء العمياء البكماء الميتة أكثر جنوناً[3] {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[4].

إن في هذا الكون ما لا يحصى من شواهد العناية والرعاية والاختراع والهداية والحكمة والإرادة والسببية الدالة على الله تعالى ولكن الإنسان يظلم نفسه. فإذا تحرر من الكبر والظلم والكذب والفساد والغفلة والإجرام والتردد في قبول الحق أشرقت آيات الله تعالى في نفسه وغمرت كل جوانحه ونوره قلبه، لأن الصفات السالفة تكوّن غشاوة على القلب فتمنعه من الاهتداء إلى الحق كما قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[5] وقال سبحانه وتعالى أيضاً: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}[6] {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[7] وكما قال سبحانه: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[8]. وقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}[9]. وقال سبحانه: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ* مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ* لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}[10]. وقال سبحانه: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[11] وقال سبحانه: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ* لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ}[12].

---

[1] سورة الملك / آية 10.
[2] سورة سيدنا يوسف عليه السلام / آية 105.
[3] الله جل جلاله، ص 99.
[4] سورة فصلت / آية 40.
[5] سورة الأعراف / آية 146.
[6] سورة الصف / آية 5.
[7] سورة الصف / آية 7.
[8] سورة البقرة / آية 26 و 27.
[9] سورة الزمر / آية 3.
[10] سورة الأنبياء عليهم السلام / آية 1-3.
[11] سورة المطففين / آية 14.
[12] سورة الحجر / آية 12 و 13.

فهيهات هيهات والقلب قلب شيطان أن يكون محلاً وأهلاً لهداية الرحيم الرحمن، فكما أن السحاب يمنع أشعة الشمس، والرمد في العين يمنع الرؤية أو يضعفها، والمرض في الأذن يمنع السمع، وليس الذنب ذنب الشمس ولا ذنب الماء الفرات إذا وجده المريض مراً، فكذلك هذه الصفات تمنع القلب هداية الله تعالى.

ومن يك ذا فم مرٍ مريضٍ يجد مراً به الماء الزلالا

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[1]. فالسر كامن في الإنسان نفسه، إن شاء سار في طريق الهداية فوصل إلى الإيمان، وإن شاء سار في طريق الغواية فأنى يصل. قال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[2] وقال سبحانه: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}[3] وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}[4] وقال عز من قائل: {وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}[5]. وقال عز من قائل: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[6] ويقول سبحانه: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}[7]. وقال سبحانه: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}[8]. وما أحسن قول القائل وهو يناجي الله تعالى، ويتأمل في مخلوقاته:

أتراك عيني والعيون لها مدى ما جاوزته ولا مدى لمداكا

والكون مشحون بأسرارٍ إذا حاولت تفسيراً لها أعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى يا شافي الأمراض من أرداكا

---

[1] سورة المائدة / آية 41.
[2] سورة الدهر / آية 3.
[3] سورة الكهف / آية 29.
[4] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم / آية 17.
[5] سورة الرعد / آية 27.
[6] سورة العنكبوت / آية 69.
[7] سورة إبراهيم عليه السلام / آية 27.
[8] سورة غافر / آية 35.

قل للصحيح يموت لا من علةٍ من بالمنايا يا صحيح دهاكا

قل للمريض نجا وعوفي بعدما عجزت فنون الطب من عافاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد من حلاكا

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ ولا مرعى من ذا الذي يرعاكا

قل للبصير وكان يحذر حفرةً فهوى بها من ذا الذي أهواكا

الله في كل الحقائق ماثلٌ إن لم تكن لتراه فهو يراكا[1]

فهذا هو حكم العقل:

الله في كل الحقائق ماثلٌ إن لم تكن لتراه فهو يراكا

ومن هنا "اعتبر القرآن العقل وسيلةً مهمةً للوصول إلى الحقائق والسعادات، فلا ترى قضيةً مهمةً يعرضها القرآن إلا ويوجه الخلق إلى التدبر والتعقل والاعتبار والمضي في التفكر"[2].

[1] للشاعر الشيخ إبراهيم بدوي من كتاب من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، ص 85.
[2] محاضرات في علم الكلام/ للشيخ أحمد حسن، ص 28.

من ثمرات اللإيمان بالله تعالى

إن الإنسان عاجز عن حصر ثمرات الإيمان الحق، ذلك لأن الإيمان في جانب من جوانبه يعني الاتصال بالله تعالى، فيكون الله عز وجل مصدر قوة المؤمن والله سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يحيط به شيء. {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]. ومن عجز الإنسان فإنه بالتأمل والتدبر يستطيع إحصاء بعض ثمار الإيمان بالله تعالى على جهة التمثيل لا الحصر. فمن ثمرات الإيمان:

1. شعور المؤمن بمكانته ومنزلته عند الله تعالى. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[2]. ولقد سبق في الباب الأول من عناية الدين بالإنسان ما يغني عن الإعادة هنا.

2. شعوره بسعادة عظيمة تملأ جوانحه وتغمر فؤاده؛ لأن السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه. "حدَّثوا أن زوجاً غاضب زوجته فقال لها متوعداً: لأشقينك. فقالت الزوجة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني، كما لا تملك أن تسعدني. فقال الزوج في حنق: وكيف لا أستطيع؟ فقالت الزوجة في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينة من الحلي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون! فقال الزوج في دهشة: وما هو؟ فقالت الزوجة في يقين: إني أجد سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي"[3].

3. شعوره بالسكينة. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ}[4] وقال سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}[5] وقال سبحانه: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[6]. والسكينة رَوْح من الله تعالى ونور، يسكن إليه الخائف، ويقوى به الضعيف، ويهتدي به الحيران، ويتسلى به الحزين، وسكينة النفس هي الينبوع الأول للسعادة، ولا مصدر لها إلا مصدر واحد لا ثاني له، هو الإيمان بالله تعالى.

---

[1] سورة الملك / آية 1.
[2] سورة الإسراء/ آية 70.
[3] الإيمان والحياة ص 90-91.
[4] سورة الفتح/ آية 3.
[5] سورة الفتح/ آية 18.
[6] سورة التوبة/ آية 40.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وفي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبداً"[1].

4. اهتداء المؤمن إلى الإجابة الصحيحة عن الأسئلة التي تفرض نفسها على العقلاء مثل ما هذا العالم؟ ومن أنا؟ وكيف وجدت؟ وإلى أين المصير؟ فبالإيمان بالله تعالى يحل لغز الحياة ويطمئن الإنسان. {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[2] وقال سبحانه: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[3] وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[4]، {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[5]، وقال سبحانه: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}[6]، وقال سبحانه: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[7].

فالذي يلاحظ ويتدبر هذه الآيات الشريفة يجدها تهدي الإنسان إلى سر وجوده بل وجود العالم كله، فالمؤمن عرف الله تعالى فعرف بالله سبحانه كل شيء. فالآيات تقرر أن الكون ملك الله تعالى، والإنسان مبتلى /ومسؤول في هذه الدار الفانية، وهو خليفة الله تعالى في أرضه،وأنه عائد بعد حين إلى الله تعالى وإلى حياة باقية سرمدية، وأن الموت جسر بين الدنيا والآخرة. "حضرت الوفاة بعض الملاحدة من الفلاسفة المتشككين، فهاله الموت وما بعده فأنشد يقول:

---

[1] مدارج السالكين ص 30.
[2] سورة الملك/ آية 22.
[3] سورة غافر/ آية 62-64.
[4] سورة الذاريات/ آية 56 و57.
[5] سورة الدخان/ آية 38-42.
[6] سورة ص/ آية 27 و28.
[7] سورة المؤمنون/ آية 115.

لعمرك ما أدري وقد أذن البلى بعاجل ترحالي إلى أين ترحالي؟

وأين محل الروح بعد خروجه عن الهيكل المنحل والجسد البالي؟

فبلغ ذلك بعض الصالحين فقال: وما علينا من جهله، إذا كان لا يدري إلى أين ترحاله؟ فنحن ندري إلى أين ترحالنا وترحاله"[1]، قال تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}[2].

5. والإيمان يجعل المؤمن حسن التصرف مع أحواله المتقلبة في الدنيا لأنه يعلم أنها دار بلاء وعبور، ويعلم أن الله تعالى خلف كل شيء بقدر، وأنه ثبت كل شيء في الأزل، {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[3]. فيكون المؤمن عابداً لله تعالى في الحالين، متقلباً في طاعته سبحانه في المقامين. يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن،إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[4]. وبهذا الإيمان يحيا حياةً كريمة، ناعم البال، هادئ الضمير، كيف لا وهو المعتقد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم، ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفّر به من سيئاته"[5].

6. الانطلاق والمسارعة للعمل الصالح والبناء النافع، لأنه يعلم ويؤمن إيماناً راسخاً أنه راحل عن هذه الدار إلى تلك الدار، وأن هناك استقراراً وحياةً دائمة، فيجعل الدنيا مزرعة للآخرة ليحصد هناك، فإيمانه كنز عظيم يدفعه إلى مضاعفة العمل والبناء، ولو ضحى بكل حياته في سبيل الفوز بثمرات الإيمان ما كان ذلك كثيراً[6]. فالعبادات عمل، وكسب الرزق الحلال عمل، والجهاد بكل أنواعه عمل، وتقديم الخير للآخرين ومساعدتهم عمل، وكل ما نوى به وجه الله تعالى بالطريق الذي شرعه ونقله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم هو نوع من العمل الذي يمليه الإيمان الراسخ الوطيد، فتكون الحضارة المادية المبنية على القيم الإيمانية ثمرةً يانعة من ثمار الإيمان بالله تعالى.

---

[1] الإيمان والحياة ص 105 و106.

[2] سورة الانفطار/ آية 13و14.

[3] سورة الحديد/ آية 22و24.

[4] انظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8، ص 227، ورياض الصالحين ص 25.

[5] مختصر صحيح مسلم ص 476 و477، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8، ص 16، كتاب البر والصلة والآداب/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض.

[6] الثمرة من شجرة الإيمان ص 55.

7. تحقيق التوازن بين الدنيا والآخرة وإعطاء الحقوق كما شرع الله تعالى، فلا يعمل للدنيا وهو غافل عن الآخرة، ولا يعمل للآخرة مع نسيان حظه من الدنيا. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[1].
وبعبارة أخرى، إن الإيمان يحقق التوازن بين المادة والروح، فلا يكون المؤمن مادياً بحتاً، ولا يكون رهبانياً عزوفاً عن ضرورات الحياة وبهجتها. وهذه صورة المؤمن الخلص أوضحتها الآية الكريمة الآتية: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[2].

8. الانسجام التام مع الكون، إذ الكون خاضع لنواميس الله تعالى، مسبّح بحمد الله، والمؤمن كذلك. قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[3]، وقال سبحانه: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[4]، وقال سبحانه: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[5]. فالكون موصول بالله تعالى والمؤمن كذلك، فليس هذا الكون عدواً للمؤمن ولا غريباً عنه، إنه مسرح نظرات المؤمن وتأملاته ومجال تفكره واعتباره، ومظهر نعم الله تعالى وآثار رحمته، إنه القرآن المنظور الهادي إلى الرحيم الغفور، فهو صديق يؤنس المؤمن في وحشته، ويؤنسه في رحلته. ويتمثل هذا الانسجام في سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقواله، روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أُحد فقال: "إن أُحداً جبل يحبنا ونحبه"[6].

9. المؤمن أوسع الناس أملاً وأعظمهم تفاؤلاً واستبشاراً، إذ الإيمان معناه الاعتقاد بالله تعالى وبكل صفاته، فهو القادر على كل شيء، وهو المحيط بكل شيء علماً، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويقبل التوبة وهو أرحم بعباده من الأب الشفيق الحميم. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[7]، {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ

---

[1] سورة القصص/ آية 77.
[2] سورة الفتح/ آية 21.
[3] سورة فصلت/ آية 11.
[4] سورة الصف/ آية 1.
[5] سورة الإسراء/ آية44.
[6] انظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 4، ص 123و124 – كتاب الحج –باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ومختصر صحيح مسلم ص 206.
[7] سورة الشورى/ آية 25.

الْحَمِيدُ}[1]، {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[2]. إله يدعو عباده إليه فيتلقى المقبل عليه من بعيد، ويغفر الذنوب حتى لو بلغت عنان السماء أو ملأت قراب الأرض، "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إليَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[3]. فالمؤمن المعتصم بهذا الإله يعيش على أمل لا نهاية لحدوده، يستقبل الحياة بوجه ضاحك وثغرٍ باسم، بل يستعذب العذاب ويمزج مرارة المصائب بحلاوة الإيمان فتنقلب حلوة المذاق، وهو يرجو من الله تعالى فوق ذلك الثواب: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[4]، فإذا اقترف إثماً تطلَّع إلى المغفرة، {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[5]، وإذا حارب كان واثقاً من نصر الله تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}[6]، وإذا أعسر لم يفقد الأمل في اليسر لأنه يؤمن بقبول الله تعالى، {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}[7]، وإذا مرض تطلَّع إلى العافية لأن الله تعالى قادر على كل شيء، {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[8]، وقال سبحانه: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[9]، وإذا ضعفت قوته ووهن عظمه واشتعل رأسه شيباً لا يفقد أمله في حياة أخرى لا موت فيها ولا هرم ولا شقاء، قال سبحانه: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ

---

[1] سورة الشورى/ آية 28.
[2] سورة الأعراف/ آية 156.
[3] انظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 9، ص 147و148 كتاب التوحيد باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله. وابن ماجه جـ 2، ص 1255، كتاب جـ 5، ص 581- كتاب الدعاء- باب حسن الظن بالله، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8، ص 66 و67،في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار – باب –الحث على ذكر الله تعالى.
[4] سورة البقرة/ آية 155 -157.
[5] سورة الزمر/ آية53.
[6] سورة غافر/ آية 51.
[7] سورة الشرح/ آية 5 و6.
[8] سورة الأنبياء عليهم السلام/ آية 83 و84.
[9] سورة الشعراء/ آية 80.

تَقِيًّا}[1]. وقد قص القرآن الكريم علينا قصص النبيين عليهم الصلاة والسلام، فبينت تلك القصص صورة الأمل المشرقة التي يتمتع بها المؤمنون المخلصون، فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}[2]، إنها دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أصبح شيخاً، فاستجاب الله تعالى له وبشره بالولد على لسان الملائكة الذين قالوا له: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ}[3]، وقول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا موسى عليه السلام حين خرج بقومه فتبعهم فرعون بجنوده، فقال أصحابه إنا لمدركون، ولكنه لم يفقد الأمل بالنجاة، {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}[4].

10. والإيمان بالله تعالى يجعل صاحبه داعية خير دائماً وأبداً، يقول الحق ولا يخشى في الله لومة لائم. ولما كان الرسل عليهم الصلاة والسلام يمثلون المؤمن الحق، فقد بين الله سبحانه وتعالى أنهم كذلك فقال عز من قائل: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[5].

وحين تعرض موسى عليه السلام والمؤمنون معه للأذى من فرعون وقومه، وعزم فرعون على قتله، لم يقف بوجهه إلا مؤمن من المؤمنين،وتأمل هذه الآيات التي تصور القضية أوضح تصوير، قال سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ

---

[1] سورة مريم عليها السلام/ آية 59 –63.
[2] سورة الصافات/ آية 100.
[3] سورة الحجر/ آية 53- 56.
[4] سورة الشعراء/ آية 60- 66.
[5] سورة الأحزاب/ آية 39.

بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[1].

ويذكر الله سبحانه وتعالى في نفس السورة توجيهات أخرى وجهها المؤمن من آل فرعون إلى قومه وكلها حجج ظاهرة، ودلالات قائمة على أن الإيمان بالله تعالى يصنع الأبطال الذين يأتون بالعجب العجاب، {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}[2].

---

[1] سورة غافر/ آية 23- 33.

[2] سورة غافر/ آية 38- 45.

الفصل الثاني

عقيدة الإيمان باليوم الآخر

تمهيد:

إن قضية الإيمان باليوم الآخر من أساسيات العقيدة الإسلامية، ولقد عني القرآن الكريم بهذا الأساس عناية بالغة وهذا واضح من دراسة سور القرآن الكريم، فهناك سور حملت اسماً من أسماء الآخرة أو اسماً لجزئية من جزئياتها مثل سورة الأعراف والواقعة والحشر والتغابن والحاقة والقيامة والنبأ والتكوير والانفطار والانشقاق والغاشية والزلزلة والقارعة. وما من سورة من سور القرآن الكريم إلا تحدثت عن الآخرة تصريحاً أو تلميحاً إلا القليل النادر، مما يدل على أهمية هذه العقيدة، فهي من أهم الحقائق التي يدعو الدين إليها، والمراد باليوم الآخر هو: أن هناك عالماً غير عالنا الحاضر، وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين، وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء، وُجد فيه الإنسان لأجل معلوم، وأن الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله لبناء العالم الآخر على طراز جديد، وأن الناس سوف يبعثون مرة أخرى، وسوف تعرض أعمالهم –خيراً أو شراً – على محكمة الله الذي يجزي كل إنسان بما عمل في الحياة الدنيا"[1]. فالآيات التالية تحدد لنا هذا المفهوم لليوم الآخر:

قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[2]، وقال سبحانه: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}[3]، وقال سبحانه: {لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[4]، وقال سبحانه إخباراً عن نبيه إبراهيم عليه السلام: {وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[5]، وقال سبحانه: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[6]. . فهذه الآيات المباركات وغيرهن وهن كثيرات جداً تقرر أن هناك عالماً آخر غير عالمنا الحاضر.

وقال سبحانه: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[7]، وقال

---

[1] الإسلام يتحدى، ص 72.
[2] سورة البقرة/ آية 94.
[3] سورة البقرة/ آية 102.
[4] سورة البقرة/ آية 114.
[5] سورة البقرة/ آية 130.
[6] سورة البقرة/ آية 200 و201.
[7] سورة البقرة/ آية 25.

سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]، وقال سبحانه: {يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[2]. فهذه الآيات تقرر صفة الخلود لنعيم الدار الآخرة وعذابها.

وقال سبحانه: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}[3]، وقال سبحانه: {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[4]. فالآيات تقرر انتهاء هذه الدنيا، وأنها للابتلاء والاختبار، وقد سبق هذا تحت عنوان الدار دار ابتلاء، فلا داعي للتكرار هنا.

---

[1] سورة البقرة/ آية 39.
[2] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 105- 108.
[3] سورة الزمر/ آية 67- 70.
[4] سورة الزلزلة/ آية 6- 8.

طريقة القرآن الكريم في تقرير الإيمان بالآخرة

من الظواهر المكشوفة بالبحث والاستقراء كثرة المنكرين من الأمم والشعوب لحقيقة الدار الآخرة التي أجمعت عليها كلمة النبيين والمرسلين عليهم الصلاة والتسليم، وذكرتها بإسهاب وتركيز جميع الكتب السماوية سابقها ولاحقها، ومع ذلك فقد منيَ كثير من البشر على مر الدهور بالانتكاس فيما يتعلق بهذه القضية اليقينية الكبرى.

" وكان العرب في جاهليتهم – وبسبب من هذه الجاهلية – لا تتسع آفاقهم التصويرية والشعورية والفكرية للاعتقاد في حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا ولا في عالم آخر غير هذا العالم الحاضر، ولا في امتدادات الذات الإنسانية إلى آماد وآفاق وأعماق غير هذه الآماد المحسوسة، مشاعر وتصورات أشبه شيء بمشاعر الحيوان وتصوراته، شأنهم في هذا شأن الجاهلية الحاضرة " العملية " كما يصر أهلها على تسميتها. "[1]!!. {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}[2]. لهذا كله جاء التوكيد الشديد في القرآن العظيم على عقيدة الآخرة وبأساليب متنوعة وكثيرة حتى أسست عقيدة الإيمان بلآخرة في حس الأمة الإسلاميةثابتة واضحة عميقة، بل أصبح المسلم كأنه يعيش في الآخرة وهو في الدنيا ينظر إلى الجنة وإلى أهلها وهم يتنعمون فيها، يحس بظلالها وعذوبة مائها وصفاء شرابها، وجمال حسانها ورضوان الله تعالى فيها، ويسمع عواء أهل النار وقد سال منهم القيح والصديد ونضجت منهم الجلود. قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلمللصحابي الجليل حارثة بن مالك الأنصاري رضي الله عنه " كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، فقال له، إن لكل قومٍ حقيقة فما حقيقة إيمانك؟وفي رواية قال له: اعلم ما تقول أو انظر ما تقول. فقال: (عزفت نفسي عن الدنيا) أي أعرضت، (فاستوى عندي حجرها وذهبها، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأني أرى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار، فقال له: عرفت فالزم، وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام قال: " من سرَّه أن ينظر إلى من نوَّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة بن مالك"[3].

---

[1] اليوم الآخر في ظلال القرآن ص 6-7.

[2] سورة الأنعام/ آية 29.

[3] قال العلامة العراقي رحمه الله تعالى - أخرجه البزار من حديث أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وكلا الحديثين ضعيف – الأحياء- جـ 4/ ص 220.

انظر: اللمع للطوسي بتخريج الشيخ محمد الحافظ بن عبد اللطيف بن سالم ص 561، و (المعجم الكبي) جـ 3/ ص 266 – ومجمع الزوائد جـ 1/ ص 57. ورواه البيهقي ي الزهد الكبير ص 971 من طريق آخر ضعيف، انظر هامش المعجم الكبير للطبراني جـ 3/ ص 266. ويؤيده ما جاء في صحيح مسلم رحمه الله تعالى، جـ 8/ ص 150 في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها – عن أبي هريرة رضي اله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ سمع وجبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا حجرٌ رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها".

لقد حشَّد القرآن الكريم أقداراً عظيمة من أسباب الإقناع والتبيين ليصل القلب إلى اليقين الجازم، ويطمئن إليه اطمئناناً، وهو حشد كبير وكثيف ومتنوع ومؤثر أشد التأثير، بحيث يأتي خطاباً للإنسان بكامل كينونته الإنسانية، مما تنطوي عليه من أساسيات في النفس والحس والعقل والقلب والضمير والوجدان. فجهد القرآن عظيم وهائل في جعل الإنسان على التيقن والتثبت، وهو جهد محسوس حين دراسة طريقة القرآن المنظم في تقرير الإيمان باليوم الآخر، وقد آن الأوان أن أذكر جانباً من هذه الطريقة:

1. إلفات الأنظار والعقول إلى صور من قدرة الله تعالى، والربط بينها وبين الإيمان بالآخرة. يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[1]. قال الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى: "كأنه قيل: إن ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم أن تنظروا في بدء خلقكم"[2]، إذ الإبداع أعظم في الاستدلال على القدرة من الإعادة، والإعادة أهون من التصديق على العقل الإنساني من الإبداع. ثم وجهت الآية الكريمة العقل الإنساني إلى إحياء الأرض الميتة حتى يربط بينها وبين إحياء الموتى، فكما يحيي الله سبحانه الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء، فينزل عليها المطر فتهتز وتتحرك وترتفع وتنبت ألواناً وأنواعاً من النباتات في اختلاف طعومها ومنافعها وأشكالها وروائحها، كذلك يحيي سبحانه وتعالى الموتى فيبعثهم من قبورهم، ويجمع ذراتهم مهما تفرقت واستحالت. ومثل هذه الآيات كثيرة، منها قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}[3]. وقوله سبحانه: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ

---

[1] سورة الحج/ آية 5-7.
[2] الكشاف، جـ3/ ص 5.
[3] سورة يس/ آية 33- 36.

مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[1].

2. إطلاق الأسماء الكثيرة على الآخرة بما يضفي عليها من الهيبة في النفوس، ويجعل ذكرها منتشراً في مختلف جوانب القرآن الكريم سواء فيه المكي والمدني. فاذِّكار المسميات الضخمة التي ترادف كلمة اليوم الآخر الواردة في القرآن الكريم وما يوحيه كل مسمى مرادف من هذه الأسماء في النفس والذهن والتصور، إذكارها يجعل لليوم الآخر أبلغ الأثر في العقل السليم، فلا يبقى إلا التسليم والتصديق بيوم البعث والنشور. فمن أسماء اليوم الآخر: القيامة، الساعة، الحاقة، الطامة، الصاخة، الغاشية، القارعة، الواقعة، الآزفة، يوم الدين، يوم التناد، يوم التلاق، يوم الحساب. قال الله سبحانه وتعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}[2]. قال القرطبي رحمه الله تعالى: "قيل أن (لا) صلة، وجاز وقوعها في أول السورة؛ لآن القرآن متصل بعضه ببعض، فهو في حكم كلام واحد، ولهذا قد يذكر الشيء في سورة ويجيء جوابه في سورة أخرى، كقوله تعالى: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}[3]، وجوابه في سورة أخرى: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ}[4]. ومعنى الكلام: اقسم بيوم القيامة، وقال بعضهم: "لا" زيادة في الكلام للزينة، كما قال في سورة (ص: 75) "قال ما منعك أن لا تسجد"، يعني أن تسجد، وقال بعضهم: "لا" رد لكلامهم حيث أنكروا البعث، فقال: ليس الأمر كما زعمتم، وفائدتها توكيد القسم في الرد. وقرأ الحسن وابن كثير "لا أقسم" بغير ألف كأنها لام تأكيد دخلت على أقسم وهو صواب، لأن العرب تقول: لأقسم بالله. وقوله "بيوم القيامة أي بيوم يقوم الناس فيه لربهم"[5]. فالله سبحانه يقسم بهذا اليوم المرعب المخيف، حيث تقوم الخلائق خائفةً بين يدي الله تعالى، ويبادر الناس منطلقين لله عز وجل للحساب، فالناس والأحياء جميعاً الرؤساء والعظماء والفقراء والأغنياء وكذا الرجال والنساء والشيوخ والولدان مؤمنين وغير مؤمنين جميعهم موقوفون على ربهم، إذ يؤتى بهم هنالك قياماً أو جثثاً.

ومن أسمائها الساعة، وهي إشارة للزمن الموعود الذي يجتمع فيه الناس والخلائق، وهو زمن فيعلم الله تعالى محسوب لا يتخلف ولا يتحول. وقد حذر سبحانه من زلزلتها، فقال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

---

[1] سورة يس/ آية 77- 83.
[2] سورة القيامة/ آية 10.
[3] سورة الحجر/ آية 6.
[4] سورة القلم/ آية 2.
[5] الجامع لأحكام القرآن جـ 19/ ص 60 و61.

وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}[1]. ويصور القرآن العظيم حسرة الإنسان يوم الساعة فيقول سبحانه: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}[2]، ويقول سبحانه: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[3]. ويجعل الله سبحانه وقت الساعة غيباً لايطلع عليه أحداً، لا نبياً مرسلاً ولا ولياً مقرباً، إذ يقول سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[4]. وقال سبحانه: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}[5]. وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الساعة: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[6].

ومن أسمائها الحاقة، سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها. قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: "الحاقة من أسماء يوم القيامة لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد، ولهذا عظم الله أمرها فقال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}"[7]. فهي المحيطة النازلة، فالقيامة إذا قامت فإنها تحيط بالناس وأحياء جميعاً، فلا يفلت من قبضة الله سبحانه وتعالى أحد، وهذه التسمية عنوان ضخم مؤثر يزرع في النفس الاهتمام والخشية، فضلاً عن الإيقاع الحسي الشديد الذي يحدثه اسم "الحاقة" في قلب السامع.

ومن أسمائها الطامة الكبرى – الداهية العظمى- وهي النفخة الثانية التي تكون مع البعث والنشور، وسميت بذلك لأنها تطم على كل شيء فتعم ما سواها لعظم هولها. "قال القاسم بن الوليد الهمداني: الطامة الكبرى حين يساق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار. وقال سفيان: هي الساعة التي يسلم فيها أهل النار إلى الزبانية، أي الداهية التي طمت وعظمت، قال:

إن بعض الحب يعمي ويصم وكذا البغض أدهى وأطم[8]

---

[1] سورة الحج/ آية 1 و2.
[2] سورة الأنعام/ آية 31.
[3] سورة الحج/ آية 7.
[4] سورة الأعراف/ آية 187.
[5] سورة النازعات/ آية 42-46.
[6] قطعة من حديث طويل رواه الإمام البخاري في صحيحه مختصراً جـ 1/ ص 20، والإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ1/ ص 29 و30 و31، والترمذي رحمه الله تعالى في سننه من رواية عمر رضي اله عنه جـ 5/ ص 7. قال الترمذي وفي الباب عن طلحة وأنس وأبي هريرة. وانظر فتح الباري جـ 1 / ص 153 – 167، والفتح المبين ص 57 – 89. ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند، انظر الفتح الرباني للساعاتي جـ 1/ ص 62.
[7] تفسير القرآن العظيم جـ 6/ ص 253.
[8] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م 19/ ص 134 بتصرف.

إذاً فهذا الاسم يدل على عنوان ضخم يشي بوقوع القيامة التي يغلب خبرها كل خبر، وتعلوا أحداثها وأهوالها على كل ما سواها. وكلمة "الطامة" قبل وصفها بالكبرى بمدها اللازم المثقل، وما يرافق ذلك من تشديد فوق حرفي الطاء والميم التي لها وقعها العظيم الموحي بشدة ذلك اليوم، كيف وقد وصفت بأنها كبرى؟ ومثلها الصاخة وهي الصيحة الشديدة التي تصم الآذان، فهي لفرط صخيخها المريع المدمر، تنشر في الخلائق والوجود أجواءً من التأزم والحيرة والرهب، فهو بيان دقيق مصور يكشف طرفاً من أهوال يوم القيامة، إذ يتولى الناس الناس شاردين لا يلوي أحد على أحد سواء أكان أخاً أم أماً أم أباً أم زوجة. {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}[1].

ثم الغاشية، وهي التي تغشى الناس فجأة، إذ تدهمهم بالقوارع والمخيفات دهماً، وكأنها غطاء غامر يشمل الخليقة أجمعين فيجعلهم تحت وطأة الشدائد والخطوب.

وهكذا بقية الأسماء، فهي تحمل في مضامينها طابعاً من التأثير الواضح الداعي إلى التفكر والتدبر، وأخذ الأمر بقوة، وذكر ما فيه بشدة، وحمله محمل الجد والاهتمام. قال سبحانه: {السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}[2].

3. القرآن الكريم يؤكد دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى الإيمان باليوم الآخر، فمن البراهين على صدق هذه الحقيقة الكبرى إجماع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هم كثرة تبلغ أعدادهم الوفا من غير أن يجمعهم زمان واحد، أو يتلاقوا فيما بينهم على صعيد واحد. هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم أفضل الناس سيرةً وأخلاقاً وتبليغاً، وهم صفوة البشر، بل ثبتت عظمتهم عن الرذائل، فهم بذلك موضع الثقة الكبرى، والائتمان الكامل فيما ينطقون به أو يدعون إليه، وقد أجمعوا بلااستثناء على حقيقة القيامة، وإنذار أقوامهم من أهوالها وشدائدها، ودعوتهم إلى نعيمها ورضوان الله تعالى فيها.

قال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}[3]، وقال سبحانه إخباراً عن سيدنا شعيب عليه السلام: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}[4]، وقال سبحانه عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

---

[1] سورة عبس/ آية 33 – 37.
[2] سورة المزمل/ آية 17- 19.
[3] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 25 و26.
[4] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 84.

{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1]، وقال سبحانه: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور}[2]، وقال سبحانه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}[3]. قال عز من قائل: {وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ}[4]. فالله سبحانه وتعالى يقسم بهذه المخلوقات على صدق ما يوعد به الإنسان من الخير والشر، والثواب والعقاب، والجزاء النازل به كما قال في السورة التي بعدها مباشرةً: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ}[5].

4. أسلوب الترغيب والترهيب: لا شك أن النفوس جبلت على الحرص على ما ينفع ويسرُّ، والابتعاد عما يؤذي ويضر، والقرآن العظيم وهو يعد الإنسان للدار الآخرة يسلك به هذا السبيل، فيشوقه إلى الجنة، ويخوفه من النار. وبما أن الدار الآخرة تبدأ بالنسبة لكل فرد من نزول سكرات الموت به، فإن ما يرغب فيه الإنسان ويرهب منه يبدأ مع اللحظة الأولى من إحساس الإنسان أنه مقبل على الموت والرحيل عن هذه الدنيا، وعليه فإني أذكر بعض ما رغَّب الإسلام العظيم فيه ورهَّب منه في حالة الموت ودخول القبر والبعث منه حتى الفراغ من حسابه ودخوله المدخل الذي يستحقه:

ففي حالة الموت وسكرته قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}[6]، أي غمرته وشدته، فلإنسان ما دام حيَّاً تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده. عن أبي بكر الأنباري عن مسروق قال: لما احتضر أبو بكر رضي الله عنه أرسل إلى عائشة رضي الله عنها، فلما دخلت عليه قالت هذا كما قال الشاعر:

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

---

[1] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 1 – 4.
[2] سورة غافر/ آية 18 و19.
[3] سورة سبأ/ آية 3 – 5.
[4] سورة الذاريات/ آية 1 – 6.
[5] سورة الطور/ آية 7 و8.
[6] سورة ق/ آية 19.

فقال الصدّيق رضي الله عنه: هلاّ قلت كما قال الله تعالى{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ}. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة – أو علبة– فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: (لا إله إلا الله، إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى) حتى قُبض ومالت يده صلى الله عليه وسلم[1].

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول: السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة"[2]. هذه هي السكرات الاعتيادية للموت فيما أعتقد، فإذا كان الإنسان كافراً جاحداً شددت عليه هذه السكرات، قال الله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[3]، وقال سبحانه: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[4]، وقال سبحانه: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[5]، وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}[6]. فالمشهد الذي ترسمه هذه الآيات للكافرين في سكرات الموت حيٌّ شاخص مرعب، فالملائكة يضربونهم ويعذبونهم، ومع هذا العذاب العظيم يؤنبونهم، والتأنيب ضرب من التعذيب بفوق العذاب الجسدي الملموس والمحسوس، "إنه المشهد الذي يهز

---

[1] صحيح البخاري، جـ 8/ ص 133.

[2] الجامع لأحكام القرآن، جـ 17/ ص 10 بتصرف يسير. والحديث الذي أورده الإمام القرطبي رحمه اله تعالى عزاه الحافظ العراقي رحمه الله تعالى إلى الأحاديث الأربعين لابن هدبة، قال وهو هالك – انظر إحياء علوم الدين، جـ 4/ ص 463.

[3] سورة الأنعام/ آية 93و 94.

[4] سورة الأنفال/ آية 50 و51.

[5] سورة النحل/ آية 28 و29.

[6] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم/ آية 25- 28.

القلب البشري هزاً عنيفاً، وهو يشخص ويتحرك ويلقي ظلاله على النفس، ويسكب إيحاءاته في القلب، ظلاله الرعبية المكروبة، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة. . إنه القرآن إنه القرآن"[1].

أما المؤمنون المخلصون فإنهم ينالون التكريم، ويجدون الحفاوة مع سكرات الموت، قال الله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[2].

وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ}[3].

جاء في تفسير القرطبي رحمه الله ": تتنزل عليهم الملائكة" قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت، وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث، وقال ابن عباس: هي بشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة، وقال وكيع وابن زيد: البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وعند البعث"[4]. والذي يبدو لي والله سبحانه أعلم، أن القول الأول هو الأرجح مع إمكانية الجمع بين الأقوال كلها، وأدلة الترجيح هي:

أ- إمكانية اللقاء مع الملائكة الكرام عليهم السلام، فالأنبياء عليهم السلام والأولياء رحمهم الله تعالى أجمعين، ثبت لقاؤهم بالملائكة عليهم السلام، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}[5]، وقال سبحانه وتعالى: {أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى}[6]. قال المفسرون رحمهم الله تعالى معنى الآية أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام بصورته الملائكية ليلة الإسراء والمعراج[7]. وقال سبحانه وتعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}[8]،

---

[1] في ظلال القرآن، جـ 3/ ص 308.
[2] سورة النحل/ آية 32.
[3] سورة فصلت/ آية 30- 32.
[4] الجامع لأحكام القرآن جـ 15/ ص 234.
[5] سورة الشعراء/ آية 192- 195.
[6] سورة النجم/ آية 12- 14.
[7] انظر الجامع لأحكام القرآن، جـ 17/ ص 63، وتفسير القرآن العظيم جـ 6/ ص 24 و25.
[8] سورة الذاريات/ آية 24- 30.

فإبراهيم عليه السلام التقى هو وزوجته بالملائكة عليهم السلام. ونزول الملائكة الكرام للقتال ثابت بنص القرآن الكريم، قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}[1].

ولقاء مريم عليها السلام بجبريل عليه السلام منصوص عليه في القرآن الكريم، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}[2].

فهذه الآيات وغيرها وهي كثيرة تؤكد وتقرر إمكانية اللقاء مع الملائكة الكرام عليهم السلام.

ب- قوله تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[3]، يفهم منه أن السلام والتبشير بالجنة يكونان من الملائكة في أثناء قبض الروح. "فإذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يال ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة"[4].

جـ- لا شك أن الإنسان في سكرات الموت تتداخله هموم، وتنزل به أحزان وكروب، فإذا كان صالحاً استحق العون من الله تعالى، لأن الله عز وجل يقول: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[5]، ويقول سبحانه: {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}[6]، ويقول سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[7]، فهذه المعية تلازم المؤمن حتى في سكرات الموت، فمن مقتضياتها الأولية أن يبشر المؤمن بما يذهب خوفه ويزيل حزنه.

د- ثبت بالأحاديث النبوية الصحيحة أن المؤمن لن يخرج من الدنيا حتى يبشر برحمة الله تعالى، وأن الكافر على العكس من ذلك. "أخرج الإمام أحمد وابن حبان والنسائي والحاكم والبيهقي واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضيةً مرضياً عنك إلى روح الله وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً، فيشمونه حتى يأتوا به إلى باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءت من الأرض، كلما أتوا سماءً قالوا ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أفرح به من أحدكم بغائبه إذا قدم عليه، فيسألونه ما فعل فلان؟ فيقول: دعوه يستريح، فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال لهم ما أتاكم،

---

[1] سورة الأنفال/ آية 9.
[2] سورة مريم عليها السلام/ آية 16 و17.
[3] سورة النحل/ آية 32.
[4] انظر: الكشاف، جـ 2/ ص 408.
[5] سورة البقرة/ آية 257.
[6] سورة الأنفال/ آية 19.
[7] سورة الأنفال/ آية 46.

فإنه قد مات يقولون: ذهب إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فتأتيه ملائكة العذاب بمسحٍ فيقولون: اخرجي ساخطةً مسخوط عليك إلى عذاب الله وسخطه، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فينطلقون به إلى باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، كلما أتوا على أرض قالوا ذلك، حتى يأتوا به إلى أرواح الكفار"[1].

هذا ما يرغِّب به الإسلام الإنسان ويرهِّب به فيما يتعلق بالموت، المصيبة الكبيرة التي كتبها الله تعالى على كل نفس، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[2]. فإذا آمن الإنسان تغيرت نظرته إلى الموت، بل ربما يصبح الموت عنده أمنية؛ لأنه بالموت ينتقل إلى دار السعادة والكرامة، وبه يصل إلى أحبابه. فقد روي عن سيدنا بلال رضي الله عنه أنه قال في سكرات الموت لابنته بعد أن سمعها تقول "واكرب أبتاه" قال لها: بل "وافرحتاه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه" صلى الله عليه وسلم:

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي[3]

فالإسلام يحبب الموت إلى الإنسان المؤمن، ويعلمه أن الموت هو اليقين، قال تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}[4]، "أي الموت، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول"[5].

وفي الحديث الشريف "من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه"[6].

والآن فلننظر إلى القبر وماذا بيَّن عنه الإسلام.

القبر هو المنزل الأول من منازل الآخرة، قال الله تعالى: {قتل الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}[7]. فالله سبحانه وتعالى جعل للإنسان قبراً يوارى فيه إكراماً، ولم يجعله مما يلقى على وجهه، الأرض تأكلهالطير والعوافي"[8].

والقبر مفرد وجمعه القبور وهو جمع كثرة، وأقبُر وهو جمع قلة، ويقال لمدفن الموتى مقبر ومقبرة[1]. والإنسان بموته تبدأ عنده الحياة البرزخية، والبرزخ: كل فاصل بين شيئين، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ

---

[1] شرح الصدور، ص 63. والحديث رواه الإمام النسائي رحمه الله في سننه جـ 4/ ص 8 باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه مع اختلاف يسير.

[2] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 185.

[3] الإيمان والحياة ص 162.

[4] سورة الحجر/ آية 99.

[5] صفوة التفاسير جـ 2/ ص 116.

[6] متفق عليه من حديث سيدنا عبادة بن الصامت رضي الله عنه. انظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله جـ 2/ ص 132، وصحيح مسلم رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 65 و66، وسنن ابن ماجة جـ 2/ ص 1425 كتاب الزهد – باب – ذكر الموت والاستعداد له.

[7] سورة عبس/ آية 17- 21.

[8] الجامع لأحكام القرآن جـ 20/ ص 143.

فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا}[2]، وقال سبحانه: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا رَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[3]، والمقصود بالبرزخ هنا الفترة الكائنة ما بين موت الإنسان ويوم البعث، وقد يشار إليها بالقبر، إلا أن كلمة البرزخ أدق وأشمل، فقد لا يقبر الإنسان، إذ قد يحرق ويذر رماده في الهواء، وقد يهلك في فلاة فتأكله الطير والسباع، وقد يموت غرقاً فيكون طعاماً سائغاً لحيوانات الماء، ففي هذه الفترة سواءً قبر الإنسان أم لا، سلك الدين بالإنسان طريق التغيب والترهيب، فبين أن القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار والعياذ بالله تعالى.

سؤال الملكين: "قد تواترت الأحاديث بذلك مؤكدة من رواية أنس، والبراء، وتميم الداري، وبشير بن الكمال، وثوبان، وجابر بن عبدلله، وعبدالله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، وحذيفة، وضمرة بن حبيب، وابن عباس وابن عمر، وابن مسعود، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وابن أمامة، وأبي الدرداء، وأبي رافع، وأبي سعيد الخدري، وأبي قتادة، وأبي هريرة، وأبي موسى، وأسماء، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين"[4].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وأنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً – وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين"[5].

وعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المسلم إذا سئل في القبر، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)[6]. فأعلم الإسلام الإنسان بأنه مسؤول في قبره، فإن هو أجاب الجواب الصحيح فله الكرامة من الله الكريم سبحانه، وإن هو أخفق، فقد رهَّبه الإسلام أشد الترهيب، إذ له العذاب الأليم من العزيز الحكيم سبحانه، قال تعالى

---

[1] انظر: التذكرة جـ 1/ ص 136 و137 – ولوامع الأنوار البهية جـ 2/ ص 4.
[2] سورة الفرقان/ آية 53.
[3] سورة المؤمنون/ آية 99 و100.
[4] شرح الصدور للسيوطي، ص 117.
[5] صحيح البخاري، جـ 2/ ص 117 و118.
[6] صحيح البخاري، جـ 6/ ص 100.

مخبراً عن آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}[1].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وقد روى البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر، فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال صلى الله عليه وسلم: "نعم عذاب القبر حق"، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى إلا تعوَّذ من عذاب القبر"[2]. ومما يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى في قوم نوح عليه السلام: {مما خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا}[3]. "قال القشيري: وهذا يدل على عذاب القبر"[4].

وقال سبحانه: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[5]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: (عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ) أنه قال: هو عذاب القبر؛ لأن الله تعالى ذكره بعد قوله: {فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[6]. قال قتادة رحمه اله تعالى: يوم يموتون. وقال سبحانه: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ *كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}[7]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ما ينزل بكم من العذاب في القبر، (ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) في الآخرة إذا حل بكم العذاب. فالأول في القبر، والثاني في الآخرة، فالتكرار للحالتين"[8].

إضافة إلى ما تقدم، فإن هناك أموراً تدل بطريقٍ من طرق الدلالة على أن في القبر عذاباً نعوذ بالله تعالى منه فمنها:

1- تعوَّذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، فقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعوَّذ من عذاب القبر وأمر أمته التعوُّذ منه.

---

[1] سورة غافر/ آية 46.
[2] تفسير القرآن العظيم، جـ 5/ ص 197 و198- وانظر: صحيح البخاري رحمه الله تعالى جـ 2/ ص 117.
[3] سورة سيدنا نوح عليه السلام/ آية 25.
[4] الجامع لأحكام القرآن، جـ 18/ ص 201.
[5] سورة الطور/ آية 47.
[6] سورة الطور/ آية 45 و46.
[7] سورة التكاثر/ آية 1- 4.
[8] الجامع لأحكام القرآن، جـ 20/ ص 118.

– روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا تشهَّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال"[1].

– وروى مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المآثم والمغرم. قالت: فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله! فقال: إن الرجل إذا غرم حدَّث فكذب، ووعد فأخلف"[2].

– روى مسلم رحمه الله أن رسول الله صلى اله عليه وسلم قال: "عوذوا بالله من عذاب الله، عوذوا بالله من عذاب القبر، عوذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، عوذوا بالله من فتنة المحيا والممات"[3].

2– ما ورد في السنن من أمورٍ منجية من عذاب القبر وفتنته، منها:

أ– المرابطة في سبيل الله تعالى، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[4]. قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره: "وقيل المراد بالمرابطة ههنا مرابطة الغزو في نحو العدو، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك منها:

– ما رواه مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان"[5]. ومنها:

– ما رواه الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر"[6]. وهكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال حسنٌ صحيح"[7].

---

[1] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي - جـ 5/ ص 87، وسنن النسائي جـ 3/ ص 58، وجـ 5/ ص 103. ورواه البخاري بدون ذكر العدد في صحيحه جـ1/ ص 201، والبيهقي في جـ 2/ ص 154، وأبو داود في جـ 2/ ص 90. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلمكان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات".

[2] صحيح مسلم بشرح النووي، جـ 5/ ص 87.

[3] صحيح مسلم بشرح النووي، جـ 5/ ص 87.

[4] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 200.

[5] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، جـ 14/ ص 61، وسنن النسائي جـ 6/ ص 39 من كتاب الجهاد/ باب فضل الرباط.

[6] سنن الترمذي جـ 4/ ص 142 – باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً، وسنن أبي داود جـ 3/ ص 9 من كتاب الجهاد – باب في فضل الرباط.

[7] تفسير القرآن العظيم جـ 1/ ص 631.

ب- الاستشهاد في سبيل الله تعالى، قال سبحانه: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[1].

فمن الكرامات الإلهية والمواهب الربانية للشهيد الأمان في القبور. روى النسائي في سننه أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلى الشهيد؟ قال: "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة"[2].

جـ- قراءة وحفظ بعض سور القرآن الكريم: كسورة الملك مثلاً، فقد روى الترمذي عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر". قال حديثٌ حسنٌ غريب "[3]. وقال ابن مسعود: إذا وضع المسلم في قبره فيؤتى من قبل رجليه فيقال: ليس لكم عليه سبيل، فإنه كان يقوم بسورة (الملك) على قدميه، ثم يؤتى من قبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة (الملك)، ثم قال: هي المانعة من عذاب الله، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب"[4].

د- الدعاء للميت وقراءة القرآن عنده والثناء عليه، ولأجل ذلك فرض الله سبحانه الصلاة على الميت، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المشيعين بالدعاء لأخيهم. روى مسلم رحمه الله تعالى بسنده عن عائشة رضي الله عنهاوعن أبيها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مسلم تصلي عليه أمةٌ من الناس يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه"[5].

- عن كريب مولى ابن عباس عن عبدالله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان، فقال: يا كريب، انظر ما اجتمع له من الناس، قال فخرجت، فإذا ناسٌ قد اجتمعوا له فأخبرته، فقال: تقول هم أربعون، قال نعم، قال: أخرجوه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه"[6].

---

[1] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 169- 171.
[2] سنن النسائي رحمه الله تعالى – جـ 4/ ص 99 – كتاب الجنائز-.
[3] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 151- كتاب – فضائل القرآن – باب – 9- ما جاء في فضل سورة الملك.
[4] الجامع لأحكام القرآن جـ 18/ ص 134.
[5] انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ 7/ ص 17، وصحيح مسلم رحمه الله تعالى جـ3/ ص 52، وسنن النسائي جـ 4/ ص 75.
[6] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 7/ ص 18 – وصحيح مسلم رحمه الله تعالى جـ 3/ ص 53.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم رحمه الله "وفي حديث آخر ثلاثة صفوف رواه أصحاب السنن، قال القاضي: قيل هذه الأحاديث خرجت أجوبةً لسائلين سألوا عن ذلك، فأجاب كل واحد منهم عن سؤاله، هذا كلام القاضي، ويحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بقبول شفاعة مائة فأخبر به، ثم بقبول شفاعة أربعين، ثم ثلاثة صفوف وإن قل عددهم فأخبر به، ويحتمل أيضاً أن يقال: هذا مفهوم عدد لا يحتج به جماهير الأصوليين، فلا يلزم من الإخبار عن قبول شفاعة مائة منع ما دون ذلك، وكذا في الأربعين مع ثلاثة صفوف، وحينئذ كل الأحاديث معمول بها، ويحصل الشفاعة بأقل الأمرين من ثلاثة صفوف وأربعين"[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر بجنازة فأثنى عليها خيراً، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت، ومر بجنازة فأثنى عليها شراً، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت، قال عمر: فدى لك أبي وأمي، مر بجنازة فأثنى عليها خيراً، فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومر بجنازة فأثنى عليها شراً، فقلت: وجبت وجبت وجبت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض"[2].

وجاء في صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن ابي هريرة ان امرأة سوداء كانت تقم المسجد او شابا ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها او عنه فقالوا مات قال افلا كنتم اذنتموني قال فكأنهم صغروا امرها او امره فقال دلوني على قبره فدلوه فصلى عليها ثم قال ان هذه القبور مملؤة ظلمة على اهلها وان الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم[3].

وروى مسلم ايضا بسنده عن عوف بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه واكرم نزله ووسع مدخله وابدله دارا خيرا من داره واهلا خير من اهله وزوجا خير من زوجه وادخله الجنة واعذه من عذاب القبر او من عذاب النار قال: حتى تمنيت ان اكون انا ذلك الميت[4].

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 7/ ص 17.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي واللفظ له جـ 7/ ص 18 و19، ورواه البخاري – مرفوعاً وموقوفاً على سيدنا عمر رضي الله عنه. انظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى، جـ 2/ ص 116 – باب ثناء الناس على الميت – وانظر: سنن الإمام النسائي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 49 – 51. وجاء عند البخاري – في تتمة حديث وجبت له الجنة: "أيما مسلم شهد له أربعين بخير أدخله الله الجنة، فقلنا: وثلاثة، قال: وثلاثة، فقلنا: واثنان، قال: واثنان، ثم لم نسأل عن الواحد" البخاري جـ 2/ ص 116.

[3] انظر: صحيح البخاري جـ 1/ ص 117- باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان- وصحيح مسلم جـ 3/ ص 56- باب الصلاة على القبر، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ 7/ ص25. وسنن النسائي جـ 4/ ص 84- 85.

[4] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 7/ ص 30 و31- وصحيح مسلم رحمه الله تعالى جـ 3/ ص 59 و60، وسنن النسائي جـ 4/ ص 73 باب – الدعاء في صلاة الجنازة.

هـ – الاعمال الصالحة كائنات حية تدافع عن صاحبها باذن الله تعالى:

جاء في كتاب الروح لابن القيم رحمه الله تعالى عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الميت اذا وضع في قبره انه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فان كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن شماله وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان عند رجليه فيؤتى من قبل راسه فتقول الصلاة ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من يمينه فيقول الصيام ما قبلي مدخل ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة ما قبلي مدخل ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والاحسان ما قبلي مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد اخذت الغروب ويقال له هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول دعوني حتى اصلي فيقولون انك ستصلي اخبرنا عما نسألك منه ارأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه وما تشهد عليه؟ فيقول محمد، أشهد أنه رسول الله جاء بالحق من عند الله، فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث ان شاء الله ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال له هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير معلق في شجر الجنة قال فذلك قول الله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ}وذكر في الكافر ضد ذلك الى ان قال ثم يضيق عليه في قبره الى ان تختلف فيه اضلاعه، فتلك المعيشة الضنك التي قال الله تعالى: {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[1].

قال شيخ ابن القيم رحمه الله: "وقد جاء فيما ينجي من عذاب القبر حديث فيه شفاء، رواه ابو موسى المديني ورواه من حديث الفرج بن فضاله: حدثنا هلال ابو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً، كلما دنا من حوضٍ منع وطرد، فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبين جلوساً حلقاً حلقاً، كلما دنا من حلقة طرد ومنع، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده الى جنبي، ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحيرٌ فيه،

[1] كتاب الروح لابن القيم رحمه الله تعالى ص 54 و55.

فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشررها، فجاءته صدقته فصارت ستراً بينه وبين النار وظلاً على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين، إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاء أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه أفراطه (أي أولاده الذين ماتوا صغاراً) فثقلوا ميزانه، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله تعالى فاستنقذه من ذلك ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي قد بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكّن روعه ومضى، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً، فجاءته صلاته فأقمته على قدميه وأنقذته، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى الى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة. قال الحافظ ابو موسى هذا حديثٌ حسنٌ جداً، قال ابن القيم رحمه الله: وسمعت شيخ الإسلام – يعني به الإمام ابن تيمة رحمه الله تعالى–يعظم أمر هذا الحديث، وقال أصول السنة تشهد له وهو من أحسن الأحاديث[1].

و– ما ورد في السنن من الأسباب الموجبة لعذاب القبر دليل آخر على إثباته، فعن ذلك:

أ)عدم الاستبراء من البول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال: " إنهما ليعذبان وما يعذبان من كبير،أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستنز من بوله. فدعا بعسيب رطب فشقه باثنين، ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً، ثم قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا". وفي رواية " كان لا يستنزه عن البول أو من البول ". رواهما مسلم[2].

ب) ارتكاب المعاصي كالكذب والزنى وأكل الربا. . . الخ: فعن سمرة بن جندب قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى صلاةً أقبل علينا بوجهه فقال: " من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فأن رأى أحد رؤيا قصها

---

[1] الروح لابن القيم ص 82 و83.

[2] انظر صحيح البخاري جـ 2/ ص 118 – كتاب الجنائز- وأخرجه قبل ذلك في جـ 2/ ص 114 في باب – الجريد على القبر- قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى: وأوصى بريدة الأسلمي أن يجعل في قبره جريدان. وسنن النسائي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 106 – باب الجريدة على القبر-.

فيقول ما شاء الله، فسألنا يوماً فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا، قال لكني رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي وأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيده كلوب من حديده يدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع الى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رؤسه كما هو فعاد إليه فضربه، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا الى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوقد تحته نار، فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم، فإذا اقترب ارتفعوا حتى يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا، قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا حتى إذا أتينا على نهرٍ من دم فيه رجلٌ قائم وعلى وسط النهر رجلٌ بين يديه حجارةٌ فأقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجرٍ في فيه فردَّه حيث كان، فجعل كلما جاء ليخرج رمي في فيه بحجرٍ فرجع كما كان، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق. فانطلقنا، حتى أتينا إلى روضةٍ خضراء فيها شجرةٌ عظيمة، وفي أصلها شيخٌ وصبيان، وإذا رجلٌ قريبٌ من الشجرة بين يديه نارٌ يوقدها، فصعدا بي الشجرة وأدخلاني داراً لم أر قط أحسن منها، فيها شيوخٌ وشبان، ثم صعدا بي فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، قلت: طوَّفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت، قالا: نعم، الذي رأيته يشق شدقه كذَّاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع بها إلى يوم القيامة، والذي رأيته يشدخ رأسه فرجلٌ علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة، وأما الذي رأيت في النقب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر فآكل الربا، وأما الشيخ الذي في أصل الشجرة فإبراهيم، والصبيان حوله فأولاد الناس، والذي يوقد النار فمالك خازن النار، والدار الأولى دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعت رأسي، فإذا قصرٌ أخضر مثل السحابة، قالا: ذلك منزلك، قلت: دعاني أدخل منزلي، قالا: إنه بقي لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملته أتيت منزلك"[1].

فها نص في عذاب البرزخ "القبر"، لأن رؤيا الأنبياء وحي مطابقٌ لما في نفس الأمر، قال تعالى حكايةً عن خليله إبراهيم عليه السلام: {وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[2].

---

[1] صحيح البخاري جـ2/ ص 120 و121 – باب الجنائز- وباب التعبير- جـ 9/ ص 56.

[2] سورة الصافات/ آية 99- 105.

قال محمد بن كعب: كانت الرسل يأتيهم الوحي من الله تعالى أيقاظاً ورقوداً، فإن الأنبياء لا تنام قلوبهم. وهذا ثابتٌ في الخبر المرفوع، قال صلى الله عليه وسلم: "إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا"[1]. وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحي، واستدل بهذه الآية[2].

فهذه النصوص كلها تدل بما لا يقبل شكاً على عذاب القبر ونعيمه، وكلها سلكت بالعقلاء سبيل الترغيب والترهيب، نسأل الله تعالى أن يجيرنا من عذاب القبر، آمين.

[1] رواه ابن سعد عن عطاء مرسلاً وقال عنه السيوطي حديث صحيح, انظر: الجامع الصغير جـ 1/ ص 387.
[2] الجامع لأحكام القرآن جـ 15/ ص 103.

النعيم في القبر

لما ثبت عذاب القبر فإن نعيمه ثابت هو الآخر، وقد ورد فيه أحاديث صحيحة منها:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: " القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"[1].

فهذا ترغيب بما يذهب رعب الموت والإقبال على الأخرة، إذ المؤمن يجب عليه أن يحسن الظن بربه سبحانه وتعالى، فعندئذ يعد القبر مظهراً من مظاهر الرحمة الالهية ومدخلاً كريماً. وقد بين الإسلام أموراً كثيرة تذهب عن القلوب المؤمنة الوحشة والخوف والحزن لأنه يصور الحياة البرزخية للمؤمنين تصويراً يشوقهم اليها فغضاة الى الحديث السابق وردت أحاديث أخرى منها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة"[2].

وعن أنس بن مالك قال: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "أن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه أنه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله قال فيقال له انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعاً، قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون"[3]. قال النووي رحمه الله ومعنى خضراً أي" يملأ نعماً غضة ناعمة وأصله من خضرة الشجر قال القاضي يحتمل أن يكون هذا الفسح له على ظاهره وأنه يرفع عن بصره ما يجاوره من الحجب الكثيفة بحيث لا تناله ظلمة القبر ولا ضيقة إذا ردت إليه روحه، ويحتمل أن يكون على ضرب المثل والإستعارة للرحمة والنعيم ما يقال سقى الله قبره والإحتمال الأول أصح والله أعلم"[4].

فالقبر بالنسبة للمؤمن موضع الكرامة واللتبجيل يمده ربه سبحانه بكل ما ينعم به، ويفتح أمامه الآفاق فينظر إلى جنة الله تعالى وينعم برضوان من الله أكبر، والله سبحانه وتعالى خير الرازقين.

بالله يا نفس إسمعي وإعقلي مقالة قد قالها ناصح

---

[1] رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد جـ 3/ ص 46. وانظر: الترغيب والترهيب جـ 4/ ص 238.

[2] انظر: صحيح مسلم بشرح النووي جـ 17/ ص 200 و201، وسنن النسائي جـ 4/ ص 107، وصحيح الإمام مسلم جـ 4/ ص 2199، وصحيح الإمام البخاري جـ 2/ ص 124 و جـ 4/ ص 142، وسنن ابن ماجة جـ 2/ ص 1427.

[3] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 17/ ص 203، وصحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 2/ ص 117 و118.

[4] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 17/ ص 204.

لا ينفع الإنسان في قبره إلا التقى والعمل الصالح[1]

[1] دليل الفالحين جـ 1/ ص 305.

نهاية العالم

إذا كان الموت هو النهاية لكل نفس فإن موتاً من نوع آخر كتب على هذا الكون بكل ما فيه، وقد صور القرآن الكريم هذه النهاية خير تصوير، وتأمل هذه الآيات:

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}[1].

وقد حدد الله تعالى له وقتاً لا يعلمه إلا هو، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}[2].

وتسبق النهاية امارات " وههنا خابت الحواس الظاهرة فلم تع غير الظاهر وأصفت العلوم على مدارج المعرفة دون العوالي البواهر، فما بقي إلا الدين"[3].

فما قال الدين عن الامارات؟ الحق أنه قال الكثير والعلماء رحمهم الله تعالى قسموهاإلى صغرى وكبرى، فمن العلامات الصغرى:

1- بعثة النبي محمد صلى الله عليه وشلم " روى الإمام البخاري ومسلم والترمذي رحمهم الله قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى)"[4]. والمراد بهذا التشبيه والله أعلم أنه صلى الله عليه وسلم ليس بينه وبين الساعة نبي آخر فهي تليه، وتأتي بعده فهو خاتم الأنبياء والمرسلين كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[5].

2- أن يكون الملوك والأمراء والرؤساء من أولاد السراري، لا من أولاد بنات البيوتات العريقة في حسن التربية والتوجيه، وعلو الأخلاق، وكمال المرؤة، كما يصبح أهل البداوة، ورعاة الغنم هم الرؤوس في الناس وأصحاب الثروات والقصور العالية، ففي حديث جبريل عليه السلام أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة "فقال: ما المسئول عناه بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الامة ربتها

---

[1] سورة التكوير/ آية 1-6.
[2] سورة النازعات/ آية 42- 46.
[3] مجمع الأشتات – الكتاب الأول – ص 149.
[4] انظر: صحيح الإمام البخاري جـ 8/ ص 131، وصحيح الإمام مسلم جـ 8/ ص 208 باب قرب الساعة، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ 18/ ص 89، وسنن الترمذي جـ 4/ ص 430، وسنن ابن ماجة جـ 2/ ص 1341، ومسند الإمام أحمد جـ 3/ ص 123- 124و جـ 3/ ص 310 و جـ 5/ ص 92- 103.
[5] سورة الأحزاب/ آية 40.

وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان". رواه البخاري ومسلم عن سيدنا عمر رضي الله عنه وعنهم[1].

3- أن تكثر الفتن ويظهر الفسق والفجور وخوارق العادات: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. "رواه الشيخان، ولمسلم: "لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر وليس به إلا البلاء"[2].

" وعن أنس رضي الله عنه قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحدثكم به أحد بعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويفشو الزنا وتشرب الخمر ويكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين إمرأة قيّم واحد". رواه الترمذي بسند صحيح[3].

" وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره فخذه بما أحدث أهله من بعده". رواه الترمذي بسند حسن[4].

ومن العلامات الكبرى:

1- طلوع الشمس من المغرب وخروج الدابة: فعندما تقترب الساعة يتغير نظام هذا الكون وتظهر أمور غير مألوفة، فتطلع الشمس من المغرب على خلاف ما عهدناه من طلوعها من المشرق، وتخرج دابة تكلم الناس. فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: " حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاًلم أنسه بعدما سمعته يقول: " إن أُولى الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، فأيتهما كانت قبل صاحبتها الآخرى على أثرها"[5].

قال تعالى: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ}[6]. ففي هذه الآية إخبار عن خروج دابة تكلم الناس حين تقترب الساعة كمقدمة من مقدماتها،وحينما لا ينفع

---

[1] انظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 1/ ص 20، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 1/ ص 30، وسنن النسائي جـ 8/ ص 97، وسنن أبي داود جـ 4/ ص224، وسنن الترمذي جـ 5/ ص 8، وسنن ابن ماجة جـ 1/ ص24، والتاج الجامع للأصول جـ 5/ ص 331.

[2] انظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 9/ ص 73 و74 – كتاب الفتن – باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 182 و 183.

[3] سنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 426 – كتاب الفتن – باب ما جاء في أشراط الساعة، البخاري جـ 1/ ص 30، ومسلم جـ 8/ ص 58.

[4] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 413 – كتاب الفتن – باب ما جاء في كلام السباع.

[5] انظر: سنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 114 – باب أمارات الساعة بزيادة – قال عبد الله وكان يقرأ في الكتب: وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 202.

[6] سورة النمل/ آية 82.

نفساً إيمانهالم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً. كما قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله علية وسلم: " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن من عليها، فذاك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[1].

2-خروج المسيح الدجال: لم يأت ذكر الدجال في القرآن الكريم، لكن كتب السنة الصحاح قد فاضت بالأحاديث التي أوردت ذكره وصفاته وأعماله وتحذير المسلمين منه وذكر سبل النجاة من فتنته، وهذه الأحاديث حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه إبتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى، من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره ونهريه وإتباع كنوز الأرض له وأمره السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ويبطل أمره ويقتله عيسى صلى الله عليه وسلم ويثبت الله الذين آمنوا"[2]. عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: "إن الله تعالى ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية". رواه مسلم[3].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الدجال مكتوب بين عينيه ك ف ر أي كافر". رواه مسلم. [4]

3-نزول عيسى بن مريم عليه السلام: يستخلص من مجموع الأحاديث أن عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان في إثناء وجود الدجال، فيحكم بالقسط ويقضي بشريعة الإسلام ويقتل الدجال، ثم يمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يموت، ويصلى عليه، ويدفن، ثم تهب ريح تقبض أرواح المؤمنين جميعاً فلا يبقى بعد ذلك إلا شرار الناس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى

---

[1] سنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 115.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 18/ ص 85.

[3] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 18/ ص 59 و60، وانظر: صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى بلفظ مقارب جـ 9/ ص 75، وسنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 444، وسنن ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 2/ ص 1356، وسنن أبي داود جـ 4/ ص116 و117.

[4] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 88/ ص 59 و60، وسنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 440 و441، لكن من رواية ابن عمر رضي الله عنهما، وصحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 9/ ص 76 بلفظ مقارب.

تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها". ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه، إقرؤا إن شئتم (وإنّ من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً). رواه البخاري ومسلم[1].

هذه بعض أشراط الساعة تُذكّر الإنسان بالزوال والفناء وتحثه على سلوك سبل النجاة والإبتعاد عن مزالق الهوى والهلاك ثم يرسل الله سبحانه قُبيل الساعة ريحاً باردة من قِبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدَخَلته عليه حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع أي "أنهم يسرعون الى الشر والظلم" فيكونون في المسارعة كالطير وفي الظلم كالسباع المفترسة، لايعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارّ رزقم، حسن عيشهم"[2].

[1] العقائد الإسلامية ص 255، والحديث في صحيح البخاري رحمه الله تعالى: كتاب البيوع باب قتل الخنزير جـ 3/ ص 102، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى: كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم جـ 1/ ص 93، وسنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 439 باب 54 ما جاء في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

[2] قطعة من حديث طويل رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص201 – كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض-.

قيام الساعة

شرار الخلق مر وصفهم هم الذين تقوم الساعة عليهم ويبدأ قيامها بالنفخ في الصور وهو قرن كالبوق، ينفخ فيه اسرافيل حين يأذن الله تعالى بقيام الساعة. أخرج الترمذي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور؟ قال: قرن ينفخ فيه. حديث حسن[1]. قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}[2] أي دليلين. وقال سبحانه: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}[3]. وقال سبحانه: {مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ}[4]. وقال سبحانه: {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[5]. وقال عز من قائل: {مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ}[6].

وهذه الصيحة أو النفخة هي الأولى التي بها تموت كل الخلائق وتفزع إلا من شاء الله تعالى وينتهي بها نظام هذا الكون ليبنى من جديد وعلى سنة أخرى. . وهذا الهدم والإنهاء تصاحبه أهوال رسمها القرآن الكريم في مشاهد متحركة ومواقف مرعبة مخيفة ليهتم الإنسان بها فيعد عدته ويتزود لذلك اليوم الذي قال عنه القرآن الكريم {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}[7].

مطلع عنيف رهيب، ومشهد ترتجف لهوله القلوب يبدأ بالنداء الشامل للناس جميعاً: "يا أيها الناس" يدعوهم الى الخوف من الله، "إتقوا ربكم" ويخوفهم ذلك اليوم العصيب، "إن زلزلة الساعة شيءٌ عظيم"[8]. والناس عندهم نوع تصور للزلزلة الصغرى التي تقع على سطح الأرض، وهي التي ستحدث مرة أخرى لتشعل الأرض كلها بل الكون كله.

---

[1] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 536 – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع – باب 8 – ما جاء في شأن الصور- وانظر: سنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 236 – كتاب السنة – باب في ذكر البعث والصور-.

[2] سورة النمل/ آية 87.

[3] سورة الزمر/ آية 68.

[4] سورة ص/ آية 15.

[5] سورة يس/ آية 29 و30.

[6] سورة يس/ آية 49 و50.

[7] سورة الحج/ آية 1 و2.

[8] في ظلال القرآن جـ 5/ ص 578.

قال تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}[1]. وقال سبحانه: {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ}[2]. وقال عز من قائل: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[3]. وقال سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[4].

مشهد مروع حقاً، هذه الأرض التي يجوس الإنسان خلالها آمناً مطمئناً وهي تحته مستقرة مطمئنة. وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها وإستقرارها. هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد إنه مشهد يشعر الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة في ذلك اليوم العظيم فإذا وقع هذا. "إذا نفخ في الصور نفخة واحدة، فهو حينئذ الأمر الهائل. الواقعة لابد أنها واقعة كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة"[5].

فهذه النصوص وغيرها تصور الأحداث الكونية الهائلة لذلك اليوم العظيم حيث تختل الموازين وتضطرب. وتوقظ الإنسان وتنبهه للإستعداد لذلك اليوم العظيم. وهذا أسلوب مؤثر من أساليب القرآن الكريم وهو يعد الإنسان للدار الآخرة. فأي نفس بعد إستحضار هذه المشاهد وتملي هذه الصور لا تقضي رحلتها على هذه الأرض إلا وهي متوجسة ومرتقبة. . . . وها رسول الله صلى الله عليه وسلم يصور هذا التوجس تصويراً لا يدع معه مجالاً للتفكه وعدم الإهتمام إذ يقول عليه الصلاة والسلام: (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ). فكأن ذلك ثقل على أصحابه–فقالوا: كيف نفعل يا رسول الله؟ قال: (قولوا حسينا الله ونعم الوكيل)[6]. حقاً إن من عايش هذه الأحداث في قلبه وضميره ووجدانه لضحك قليلاً ولبكى كثيراً وفر إلى الصعدات يجأر إلى الله تعالى. . . روي أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يتمثل دائماً البيت الآتي:

لا شئ مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد[7]

---

[1] سورة التكوير/ آية 1-6.
[2] سورة المرسلات/ آية 8- 10.
[3] سورة الحاقة /آية 13- 16.
[4] سورة طه/ آية 105- 107.
[5] اليوم الآخر في ظلال القرآن ص 153.
[6] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعاى جـ 4/ ص 536 باب 8- ما جاء في شأن الصور-و حـ 5/ ص347 و348 – كتاب التفسير- باب 40، ومن (سورة الزمر).
[7] تذكرة الرعاة ص 120.

وبعد هذا الفناء تمضي فترة لم يحددها الدين بل قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: ما بين النفختين أربعون قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت[1]. ثم يأمر الله بالنفخة الثانية التي قال عنها ربنا جل جلاله وعم نواله: {ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُون}[2]. وقال سبحانه: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[3]. وقال سبحانه: {وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ}[4]. وقال سبحانه: {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}[5]. وقال سبحانه: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[6]. وقال سبحانه: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}[7]. وقال سبحانه: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}[8]. فهذه الأيات وغيرها كثيرة تدل قاطعة على أن الله يبعث الخلائق ثم يحشرها فلا تخزنا يوم يبعثون يا رب العالمين.

---

[1] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 5/ ص 362، ورواه الإمام مسلم رحمه الله في جـ 8/ ص 210.
[2] سورة الزمر/ آية 68.
[3] سورة يس/ آية 51- 54.
[4] سورة الصافات/ آية 15- 19.
[5] سورة النازعات/ آية 6- 14.
[6] سورة المجادلة/ آية 6.
[7] سورة المعارج/ آية 43 و44.
[8] سورة ق/ آية 41- 44.

البعـــث والحـشـر

البعث لغة: الإرسال تقول بعثه إي أرسله. وبعث الميت أي أقامه ومنه "يوم البعث" أي يوم القيامة[1]. والبعث-ويحرك-: الجيش جمعه بعوث.

أما في الإصطلاح: فهو قيام الخلائق من قبورها في الآخرة بعد موتها.

وأما الحشر فهو في اللغة[2] الجمع، يقال حشرت الناس إذا جمعتهم. والمقصود منه إصطلاحاً هو:

1- حشرهم من القبور أي: جمع أجزاء الميت بعد التفرقة، ثم إحياء الأجساد وهذا مرادف للبعث في المعنى. وبهذا المعنى جاءت كلمة الحشر في قول الله تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}[3]. وهل الحشر هو إيجاد بعد فناء؟ أم جمع بعد تفرق؟ مسألة خلافية بين المتكلمين[4].

2- الحشر إلى الموقف للحساب، قال الله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[5].

3- الحشر إلى الجنة أو النار قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}[6]. وقال سبحانه: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}[7]. وقال سبحانه: {الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا}[8].

والحشر بكل معانيه تصاحبه أهوال لها الوقع الشديد على النفس يمكن لنا أن نتصور شدتها من خلال الآيات القرآنية آنفة الذكر ومن أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومنها:

- عن سهل بن ساعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد)[9].

---

[1] انظر: ترتيب القاموس المحيط جـ 1/ ص 291 - والمنجد – ص 42.
[2] انظر: ترتيب القاموس المحيط جـ 1/ ص 646 – والمنجد ص 135.
[3] سورة ق/ آية 44.
[4] انظر: المقاصد وشرحه جـ 2/ ص 215- 218.
[5] سورة الكهف/ آية 47- 49.
[6] سورة سيدتنا مريم عليها السلام/ آية 85- 87.
[7] سورة طه/ آية 102- 104.
[8] سورة الفرقان/ آية 34.
[9] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص 135، والإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص127 – باب في البعث والنشور.

- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله صلى لله عليه وسلم خطيباً بموعظة فقال: (يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً). "كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين"[1].

- عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه)[2].

[1] صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – باب – فناء الدنيا وبيان الحشر- جـ 8/ ص 157، والآية التي في الحديث اللشريف هي الآية (104 من سورة الأنبياء عليهم السلام).

[2] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 5/ ص 368 – رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص 158 – صفة يوم القيامة، وانظر: سنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ 531.

سبيل النجاة من أهوال البعث والحشر

القرآن الكريم وهو يعد الإنسان للدار الآخرة:

ذكر أوصافاً، وعدد صفات للنجاة من هذه الأهوال، فأيّما عبد اتصف بها فهو في مأمن إنشاء الله تعالى، منها:

1- الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى، فقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: "نبّه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فأن له جزاءً الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم فله السعادة الأبدية، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلّفونه"[2].

وقال سبحانه: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[3]، وقال سبحانه: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[4]، وقال سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[5]. فبالإيمان بالله تعالى والتبري من الشرك ينجو الإنسان من الأهوال، ويكون في مأمن من عذاب الله تعالى، ويستحق عفو الله وغفرانه ودخول جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

2- الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وعمل الصالحات: قال سبحانه وتعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[6]، وقال سبحانه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[7]، قال سبحانه: "ما ادحا المؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعدَّ لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون"[8]. وقال جل جلاله وعم نواله: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ *

---

[1] سورة البقرة/ آية 62.
[2] تفسير القرآن العظيم جـ 1/ ص 151.
[3] سورة النساء/ آية 147.
[4] سورة التحريم/ آية 8.
[5] سورة الأنعام/ آية 82.
[6] سورة البقرة/ آية 38.
[7] سورة البقرة/ آية 277.
[8] تفسير القرآن العظيم جـ 1/ ص 474.

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1]. فالآية الأولى صريحة في استثناء بعض المخلوقين من الفزع، واختلف فيهم – فمنهم من قال أنهم الأنبياء عليهم السلام، ومنهم من قال أنهم الشهداء، ومنهم من قال أنهم الملائكة، ومنهم من قال أنهم أهل الجنة والحور العين، ومنهم من قال أنهم المؤمنون الصادقون المخلصون[2]. والذي أراه والله سبحانه وتعالى أعلم أن هذا الخلاف ليس مهماً جداً إذا ما علمنا أن الله تعالى قادرٌ على إماتة المخلوقات وبعثها دون فزع، وقد مرَّ معنا في الباب الأول ما معناه أن الإسلام أوصل المؤمن الصادق إلى مقام الرضا والطمأنينة بحيث يرى الموت أمراً مرغوباً فيه، فإذا نزل به نسمعه يقول: "فزت ورب الكعبة"، أو يقول: "وافرحتاه، غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه صلى الله عليه وسلم"، وعلى هذا المفهوم يكون معنى الآية الثالثة: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}، أنهم يموتون لكن من غير فزع إكراماً لهم من الله تعالى، وجزاءً وفاقاً على ما قدَّموا من الأعمال الصالحة المبنية على الإيمان الصادق– وكذا حالهم في النفخة الثانية، نفخة البعث والنشور. ومن الطاعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم التعاون والتكافل والدعوة إلى الخير، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[3]. وكلما كانت الأهوال أعظم وأشد كانت الحاجة ماسَّةً إلى رحمة الله تعالى، وهل هناك أهوال أشد من أهوال القيامة؟!. . وقال سبحانه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[4]. وقد بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر التعاون هذا في كشف كرب يوم القيامة، فقال صلى الله عليه وسلم: "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس به علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه"[5]. وقال

---

[1] سورة النمل/ آية 78- 90.

[2] انظر: التذكرة – باب في قول الله تعالى: (ونفخ في الصور. . .) جـ 1/ ص 232.

[3] سورة التوبة/ آية 71.

[4] سورة المائدة/ آية 2.

[5] انظر: رياض الصالحين - باب قضاء حوائج المسلمين ص 110، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 1996، وسنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 273 – باب الؤاخاة – وجـ 4/ ص 287 باب في المعونة للمسلم، وسنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 287 و 288 باب 19 – ما جاء في السترة على المسلم -.

سبحانه: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}[1]. فجعل الله سبحانه الإطعام وهو نوعٌ من أنواع التكافل سبباً للنجاة من أهوال يوم القيامة، وهذه الصفات التي ذكرت وغيرها وهي كثيرة تجتمع في صفة التقوى، وهي: الخوف من الجليل، والرضا بالقليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل. أو هي: أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك، بل هي ملكةٌ في النفس ينبع عنها سلوكٌ مستقيم. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "التقوى ههنا"[2]، ويشير إلى صدره صلى الله عليه وسلم، وهي من أعظم المنجيات يوم الدين.

- فهي مقياس القرب والبعد من الله تعالى، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[3].

- وهي خير زاد ليوم المعاد، {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[4].

- والتقوى تجعل الإنسان ولياً لله تعالى، {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[5].

وقال سبحانه: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[6].

والتقوى توجب محبة الله تعالى لصاحبها، قال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}[7]. وهل يعذب الله سبحانه من يحب؟!. وتأمل قول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[8]، وقوله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: {فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}[9]. ثم تأمل حياتهما حتى تلمس عناية الله تعالى بهما، فموسى عليه السلام ينجو من فرعون لأنه محبوب عند الله تعالى، ويجعل الله سبحانه وتعالى له أسباب الهلاك أسباباً للنجاة، فيجعل فرعون خادماً ومربياً له والبحر مركباً ذلولاً، وأما رسول الله صلى الله

---

[1] سورة الإنسان/ آية 7- 11.
[2] قطعة من حديث رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص 10 و11 – باب تحريم ظلم المسلم وخذله.
[3] سورة الحجرات/ آية 13.
[4] سورة البقرة/ آية 197.
[5] سورة الأنفال/ آية 34.
[6] سورة سيدنا يونس عليه السلام/ آية 62- 64.
[7] سورة التوبة/ آية 7.
[8] سورة طه/ آية 39.
[9] سورة الطور/ آية 48.

عليه وسلم فإن الله سبحانه يظهره على أعدائه في أقصر فترة، ويكتب له السلامة من مكر الأعداء على الرغم من شدته وكثرته.

والتقوى موجبٌ للأمن والاطمئنان والنجاة، قال سبحانه: {وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[1]، وقال سبحانه: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}[2].

فالتقوى من أوضح سبل النجاة في الدار الآخرة، لذلك اعتنى القرآن العظيم ببيانها.

3- اجتناب الآثام، ذاك لأن الآثام والمعاصي مهلكات وموجبات لغضب الديَّان، فالابتعاد عنها موجب لرحمة الرحمن، لذلك أكد القرآن على الإنسان النأي عن مواطن الآثام، فقال سبحانه: {وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ}[3].

وقال جل جلاله وعمَّ نواله: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[4]، وبين سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين الذين لا تضرهم أهوال القيامة اجتناب الاثم، فقال سبحانه: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[5].

---

[1] سورة الزمر/ آية 61.
[2] سورة الدخان/ آية 51.
[3] سورة الأنعام/ آية 120.
[4] سورة الأعراف/ آية 33.
[5] سورة النجم/ آية 31 و32.

العرض والحساب

ثم يأتي العرض والحساب، يقول سبحانه: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}[1]، وقال سبحانه: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[2]، وقال سبحانه: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يحشر الناس على ثلاث طرائق، راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا"[4].

وقال سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ}[5]، وقال عز من قائل: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ}[6]، فإذا تلقوا الصحف حوسبوا بها، قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا}[7].

وفي هذا الموقف المخيف الآخذ على مجامع القلوب بهيبة الحضور بين يدي العزيز الجبار الذي لا يضل ولا ينسى، يحاسب الإنسان على ما عمل. قال سبحانه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[8]، وقال سبحانه: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[9]، أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما فيه واعتقد، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع، وقيل: المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده، ونظيره

---

[1] سورة الأنبياء عليهم السلام/ آية 1-3.
[2] سورة الحاقة/ آية 18.
[3] سورة الكهف/ آية 49.
[4] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى – باب ما جاء في الرقاق – باب – كيف الحشر جـ 8/ ص 135 و 136، وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب – فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة جـ 8/ ص 157.
[5] سورة الحاقة/ آية 19.
[6] سورة الحاقة/ آية 25 و26.
[7] سورة الانشقاق/ آية 7 – 12.
[8] سورة الزلزلة/ آية 7 و8.
[9] سورة الإسراء/ آية 36.

قوله صلى الله عليه وسلم: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته"، فالإنسان راعٍ على جوارحه، فكأنه قال: كل هذه كان الإنسان عنه مسؤولاً[1].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه"[2]. وفي هذه المساءلة والمحاسبة يكون الشهود عليك منك، فالسمع يشهد والبصر والجلد كذلك، والأيدي والأرجل والأرض التي كنت عليها، قال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[3]، وقال ربنا جل جلاله وعمَّ نواله: {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[4]، وقال سبحانه: {وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[5]. وقال سبحانه: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا}[6].

"إنها المفاجأة الهائلة في الموقف العصيب، وسلطان الله الذي تطيعه جوارحهم وتستجيب وهم يوصمون بأنهم أعداء الله، فيحشرون ويجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم كالقطيع، إلى أين؟ إلى النار، حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب، إذا شهود عليهم لم يكونوا في حساب"[7]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)، قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله وسروله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل كذا وكذا"[8]. إنه يوم الفصل ويوم الجزاء ويوم العدل، ومن عدله سبحانه وتعالى أن يقيم الشهود على الإنسان من نفسه، ويقضي عليه بنفسه قضاءه الحق، فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئاً، يقول سبحانه: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

---

[1] الجامع لأحكام القرآن جـ 10/ ص 169 والحديث الذي أورده الإمام القرطبي رحمه الله تعالى – ورد في صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 6/ ص 8، وفي سنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 3/ ص 130 رقم الحديث 2928.

[2] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 529 – كتاب صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 1 – في القيامة.

[3] سورة النور/ آية 23- 21.

[4] سورة يس/ آية 65.

[5] سورة فصلت/ آية 19 – 21.

[6] سورة الزلزلة/ آية 4 و5.

[7] اليوم الآخر في ظلال القرآن ص 199 بتصرف يسير.

[8] سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 535، كتب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 7 – ما جاء في العرض – وجـ 5/ ص 416. كتاب تفسير القرآن باب – 87 – (ومن سورة إذا زلزلت). .

التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[1].

[1] سورة غافر/ آية 14- 20.

الميزان والموزون

الأول: أنه ميزان له لسان وكفتان توزن به أعمال العباد خيرها وشرها يوم القيامة، وهو قول الجمهور لظاهر الأحاديث الواردة.

الثاني: هو العدل والقضاء في تقدير ما يكون به الجزاء على الأعمال، وهذا المعنى شائع في اللغة، وهذا هو قول مجاهد والأعشى وبه قالت المعتزلة، لأن الأعمال عندهم أعراض، والأعراض يستحيل وزنها إذ لا تقوم بنفسها[1].

"ويكون وزن الأعمال بعد انقضاء الحساب؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فالمحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها"[2].

وقد وردت كلمة الميزان في بعض آيات القرآن الكريم، فكان دليلاً على ثبوته، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[3]، وقال سبحانه: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}[4].

وكذلك اختلف العلماء في الموزون، فمنهم من قال أنه صحف الأعمال لما ورد في سنن الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر،ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء"[5]. "وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يوزن يوم القيامة، فقال: الصحف"[6].

---

[1] رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص 114.
[2] أصول الدين الإسلامي ص 474.
[3] سورة ا لأنبياء عليهم السلام/ آية 47.
[4] سورة القارعة/ آية 6- 9.
[5] رواه الترمذي رحمه الله تعالى في سننه جـ 5/ ص 25 – كتاب الإيمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 17 – ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله – وسنن ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 2/ ص 1437 – كتاب الفتن: باب – افتراق الأمة.
[6] لوامع الأنوار البهية جـ 2/ ص 187.

ومنهم من قال أن الموزون هو العامل، واستدلوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال اقرؤوا: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}[1].

ومنهم من قال: الموزون هو الأعمال، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[2]. وروى مسلم رحمه الله عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان"[3].

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى يظهر بهذا الميزان العدل والإنصاف، ويبين الفضل، ويقطع الحجة على الناس، إذ أنه يزن مثاقيل الذر من خيرٍ وشر، فهو أمارةٌ لأهل الخير والنجاة، كما أنه أمارةٌ لأهل الشر والفساد، وبه يعرف العباد ما عليهم من الخير والشر، فتقام الحجة عليهم، ويكون الوزن بمقابلة الحسنات بالسيئات. قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}[4]. ويتبين من هذه أن الوزن يكون لأعمال المؤمنين المخلصين المتقين لإظهار شرفهم وفضلهم، وتوزن أعمال الكافرين إظهاراً لخزيهم وذلهم.

وهنالك أقوام لا ترفع لهم ميزان، ولا توزن لهم أعمال، ولا يؤتون صحفاً، وإنما هي براءات مكتوبة، فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذه براءة فلان بن فلان قد غفر له، وسعد سعادةً لا يشقى بعدها، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام[5]. فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثياته"[6]. نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

---

[1] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 6/ ص 117 – كتاب التفسير – باب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم) والآية الواردة في الحديث الشريف هي الآية 105 من سورة الكهف.

[2] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 9/ ص 199 – باب قول الله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) وهو آخر حديثٍ في صحيحه، ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص 70 – باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

[3] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالىفي صحيحه جـ 1/ ص 140 –كتاب الطهارة – باب – فضل الوضوء.

[4] سورة المؤمنون/ آية 101- 104.

[5] التذكرة جـ 2/ ص 420.

[6] التاج الجامع للأصول جـ 5/ ص373 – انظر: سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 540 – كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 12 – ما جاء في الشفاعة – ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى بألفاظٍ متقاربة في كتاب الإيمان جـ 1/ ص 136 و137.

الصراط

لغةً: الطريق[1]. واصطلاحاً: جسر ممدود على متن جهنم، يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار. . قال تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}[2]، وقال سبحانه وتعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}[3]، وذكره سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه فقال: "ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون سلم سلم، قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم"[4]. فتوهم نفسك إذا كنت على الصراط ونظرت إلى جهنم تحتك سوداء مظلمة قد لظي وغلا لهيبها وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرى:

أبت نفسي تتوب فما إحتيالي إذا برز العباد لذي الجلال

وقاموا من قبورهم سكارى بأوزار كأمثال الجبال

وقد نصب الصراط لكي يجوزوا فمنهم من يكب على الشمال

ومنهم من يسير دار عدن تلقاه العرائس بالغوالي

يقول له المهيمن يا وليي غفرت لك الذنوب فلا تبالي[5]

---

[1] نظر: ترتيب القاموس المحيط جـ 2/ ص 814 – باب الصاد- والمنجد ص 422.

[2] سورة مريم عليها السلام/ آية 71 و72.

[3] سورة يس/ آية 66.

[4] قطعة من حديث طويل رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 1/ ص 113 – كتاب الإيمان – باب رؤية الله تعالى في الآخرة – وبشرح النووي جـ 3/ ص 29.

[5] التذكرة – جـ 2/ ص 442.

الحـــــــوض

قال تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}[1].

والكوثر إسم لحوض النبي صلى الله عليه وسلم ولنهر في الجنة على أصح الأقوال[2]. والأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً إستقصاها المحدثون والمفسرون رحمهم الله تعالى في كتبهم، "قال القاضي عياض رحمه الله تعالى أحاديث الحوض صحيحة والإيمان به فرض والتصديق به من الإيمان وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه"[3]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً "[4]. وعن أنس رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءةً ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ *إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ)، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك "[5]. وسمع أنس رضي الله عنه قوماً يتذاكرون الحوض، فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم. قال الشاعر:

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنت حقاً حبيب باريكا[6]

وهل الحوض في الموقف أم في الجنة؟ الذي يبدوا من إختلاف الروايات في مكان الحوض أن هناك حوضين، أحدهما في الموقف والثاني في الجنة[7]. وقال صاحب متن الشيبانية:

وحوض رسول الله حقا أعده له الله دون الرسل ماءً مبردا

ويشرب منه المؤمنون وكل من سقي منه كأساً لم يجد بعده صدا

---

[1] سورة الكوثر/ آية 1-3.

[2] انظر: الأقوال العديدة في المراد بالكوثر في تفسير القرطبي جـ 2/ ص 216 و217.

[3] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 15/ ص 53.

[4] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 7/ ص 66 – كتاب الفضائل – باب – إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته.

[5] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 149 -150، وصحيح الإمام مسلم بشرح النووي رحمهم الله تعالى جـ 15/ ص 53 – 56 كتاب الفضائل – باب إثبات حوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصفاته – ورواه ابن ماجة رحمه الله تعالى في سننه جـ 2/ ص 1438.

[6] الجامع لأحكام القرآن جـ 20/ ص 148.

[7] شرح النسفية ص 140 و141.

أباريقه عد النجوم وعرضه كبصرى وصنعا في المسافة حددا[1]

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يردن علي ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك"[2]. قال العلماء: فكل من ارتد عن الإسلام أو أحدث فيه ما لم يأذن به الله فهو من المطرودين عن حوض سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

[1] مجموع مهمات المتون/ متن الشيبانية ص 36.
[2] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى/ كتاب الرقاق – باب فضل الوضوء جـ 8/ ص 149.
[3] لوامع الأنوار البهية جـ 2/ ص 200.

الجنــة والنــار

وبعد تلك الأهوال والمشاهد التي تسر المؤمن فيتنعم، وتحزن الكافر فيتندم، ينتهي كلٌ إلى مقامه فإما إلى دار الرضى والأفراح في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، أو إلى دار التعاسة الأتراح في جهنم وبئس القرار.

والقرآن العظيم وهو يعد الإنسان للدار الآخرة يصور لنا الجنة والنار بما يقطع أن لهما كياناً مادياً محسوساً، وهذا التصوير على سبيل المثال وإلا فإن الجنة والنار أوسع وأعظم وأكبر مما يتصوره العقل الإنساني في هذه الحياة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً بله ما أطلعكم الله عليه، ثم قرأ: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}"[1]. وإني أنقل بعض ما ذكره القرآن الكريم والنبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم

من أوصاف لهما ولأهلهما ترغيباً بالجنة ونعيمها، وترهيباً من النار وأليم عذابها، مبتدأً بالجنة تفاؤلاً برحمة الله نعالى، وتمشياً مع روح رسالة الإسلام حيث اليسر مقدمٌ على العسر. قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[2].

الجنة لغةً: الحديقة ذات الشجر. قيل لها ذلك لسترها الأرض بضلالها[3]، ويقال أرض مجننة: كثر عشبها حتى ذهب كل مذهب[4]. قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[5].

وقال سبحانه: {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ}[6].

وإصطلاحاً: هي الدار التي أعدها الله للمؤمنين جزاءً لهم على إيمانهم الصادق وعملهم الصالح. وقد ذكرها الله سبحانه في أكثر من مائة وخمسين موضعاً في القرآن الكريم، ووصفها لنا وبين نعيمها ودرجاتها وطعامها وشرابها ولباسها، كل ذلك لترغيب الإنسان فيها وتشويقه إليها، فقال سبحانه: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا

---

[1] صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى جـ 9/ ص 176، وسنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 323. كتاب تفسير القرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب -33 – " ومن سجد السجدة " مختصراً، وسنن ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 1447 – وصحيح مسلم بشرح النووي جـ 17/ ص 166، والآية الكريمة من (سورة السجدة/ آية 17).

[2] سورة البقرة/ آية 185.

[3] المنجد ص 102.

[4] ترتيب القاموس المحيط جـ 1/ ص 144.

[5] سورة البقرة/ آية 265.

[6] سورة القلم/ آية 17 و18.

زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}[1].

إنها الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين، جنةً وحريراً، جنةً يسكنونها وحريراً يلبسونه، وهل هذه الآية بحاجة إلى تفسيرٍ وتوضيح؟ اللهم لا، إن قارئها يكاد أن يشمَّ عطر الجنة، ويرتوي من مائها، ويتقلب على أسرَّتها، ويتفيأ ظلالها في روحانيةٍ وتبجيلٍ وإكرامٍ وتعظيمٍ وثناءٍ وتطمينٍ، "ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية، تتجلى عليها طلعة الرحمن البهية"[2]. وهذا النعيم دائم، والسرور في الجنة لا ينفد، وكل ما فيها بغير حساب، يقول ربنا سبحانه: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}[3]. وهذه الأنهار تجري من تحت قصورها، وفيها الفواكه ولحوم الطير وكل ما يشتهيه الإنسان مما لذَّ وطاب.

قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[4].

وقد حدثني شيخي وأستاذي العلامة الدكتور عبدالله النقشبندي أن من معاني (وأتوا به متشابهاً) أن الإنسان في الجنة يشعر بلذة هي غير ما شعر به في المرة الأولى، وهكذا فهو يجد ما يقدم له متشابهاً إلا أن الطعم يختلف. هذا إضافةً إلى ما جاء في تفسيرها من تشابه ثمار الجنة بثمار الدنيا من حيث الشكل لا الطعم. "فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه، وعظمته وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشرك به وضمنه لك، وجعله أسهل شيء عليك وأيسره"[5].

وأصحاب الجنة هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، وهؤلاء الزوجات ينشئهن الله تعالى إنشاءً، عرباً أتراباً، كما ينشئ معهم الحور العين كأنهن بيضٌ مكنون، وهن مطهراتٌ من العيوب والنواقص، فلا دمامة

---

[1] سورة الدهر/ آية 11- 22.
[2] اليوم الآخر في ظلال القرآن ص 307.
[3] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم/ آية 15.
[4] سورة البقرة/ آية 25/ التفسير القيم ص 129.
[5] التفسير القيم ص 129.

خلق ولا سوء خلق. قال ابن القيم رحمه الله: "وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآبدين وعدم انقطاعه[1]. وقال سبحانه: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[2]. فهن عفيفات الشعور والنظر، لا تمتد أبصارهن إلى غير أزواجهن، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جان، وهن بعد ذلك ناضراتٌ لامعات، وقد وصفهن الله تعالى باللؤلؤ المصون الذي لم يتعرض للمس والنظر، فلم تثقبه يد، ولم تخدشه عين، {وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[3].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لغدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده – يعني سوطه – من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأةٌ من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً، ولأضاءت ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها"[4]. ويقول سبحانه: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا}[5]. فالمتقون ينتهون إلى مفازةٍ ومنجاةٍ تتمثل في حدائق ذات بهجة، وكواعب وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهن، أتراباً متوافيات السن والجمال، وكأساً دهاقاً مترعةً بالشراب. يقول سبحانه: {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[6]، ويقول سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[7]. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر طاقاتهم هم أصحاب الجنة يعودون إليها – بإذن الله تعالى وفضله ورحمته، حيث لا يدخل أحد الجنة بعمله كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قاربوا وسددوا واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله، قالوا: ولا أنت

---

[1] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص149.
[2] سورة الرحمن جل جلاله/ آية 56- 59.
[3] سورة الواقعة/ آية 22- 24.
[4] رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه جـ 4/ ص 156 رقم الحديث 1651 – كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله – ورواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه مختصراً جـ 4/ ص 20 و144- كتاب الوصايا – باب الغدو والروحة. وانظر: جـ 8/ ص 110 أيضاً. ورواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 6/ ص 36 – كتاب الإمارة – باب فضل الغدو والروحة في سبيل الله.
[5] سورة النبأ/ آية 31- 34.
[6] سورة يس/ آية 55- 58.
[7] سورة الأعراف/ أية 42 و43.

يا رسول الله؟! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمةٍ منه وفضل"[1]. فما أعظم هذه النسبة (إن أصحاب الجنة)، إنها تدل على الكرامة الإلهية لهؤلاء الذين عصوا الشيطان واجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله تعالى فاستحقوا هذه البشرى، فهم أصحاب القلوب المفتوحة المنورة التي خلت من حظوظ النفس وطهرت من الغل فعاشت في جنة الله تعالى، وغمرت بفضل الله، والله ذو الفضل العظيم. وكما أن الله تعالى نزع من قلوبهم وصدورهم الغل، فأصبحوا إخواناً على سرر متقابلين، فإن الله تعالى طهر ألسنتهم من الكذب، وطهر الجنة من اللغو والتأثيم، فلا يسمع فيها إلا التقديس والتسبيح لله رب العالمين، وسلام بعضهم على بعض، وسلام الله تعالى عليهم وكذلك ملائكته عليهم السلام. قال سبحانه: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}[2]. وقال سبحانه: {. . . وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[3]. وإذا ذهبت أخي القارئ تستقصي ما ورد عن الجنة في كتاب الله تعالى فإنك ولا شك ستقف على ما يدفع النفس إلى التنافس والمجاهدة، وصدق الله العظيم إذ يقول: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}[4].

ولكن هل هذه هي الغاية من نعيم الجنة، أم هناك ما هو أسمى وأعلى؟ يقول القرآن الكريم وتؤكده السنة المطهرة أن هناك نعيماً أعلى وأعظم مما ذكر، إنه رؤية الله تعالى ومناجاته والفوز برضوانه، فما قيمة النعيم المادي من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولحوم الطير والفواكه إذا لم يصحبه رضوان الله تعالى؟ وما قيمة هذا النعيم بالنسبة إلى التمتع بالنظر إلى وجه الله تعالى؟ يقول الله سبحانه وتعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[5]، ويقول سبحانه: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[6].

أخرج الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عن صهيب رضي الله عنه أنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادى

---

[1] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 8/ ص 122، وابن ماجة رحمه الله تعالى في سننه جـ 2/ ص 1405، وأورده الإمام النووي في رياض الصالحين – باب الاستقامة – ص 49.

[2] سورة الواقعة/ آية 25 و26.

[3] سورة الأعراف/ آية 23 و24.

[4] سورة المطففين/ آية 22- 28.

[5] سورة القيامة/ آية 23 و24.

[6] سورة سيدنا يونس عليه السلام/ آية 26.

منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه، قال: فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر بأعينهم"[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: " أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك"[2]. وهذه من بعض أدلة جمهور المسلمين الذين قالوا بجواز رؤيته سبحانه وتعالى في الدار الآخرة، "وهو ما أجمع عليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم أجمعين لابتهالهم إلى الله سبحانه وتعالى في طلب لذة النظر إلى وجهه الكريم واعتقادهم بذلك، كان ذلك بقرائن من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجملة من ألفاظه الصريحة التي لا تدخل تحت الحصر"[3]. قال الإمام مالك رحمه اله تعالى: لما حجب أعداؤه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه، ولو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يعير الكافرين بالحجاب، قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}[4]. وهذا هو مذهب أهل الحق الموافق لكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما سيق من الأدلة حجةٌ على منكري الرؤية، ومنهم الجهمية والمعتزلة والخوارج مستدلين بأدلة لا تثبت أمام أدلة الجمهور[5].

وبهذا النعيم العظيم أختم الكلام عن جنة رب العالمين جل جلاله وعمَّ نواله، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها، آمين.

---

[1] مسند الإمام أحمد واللفظ له جـ 4/ ص 333، وصحيح مسلم في كتاب الإيمان – باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه جـ 1/ ص 112، وسنن الترمذي – كتاب صفة الجنة – باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى جـ 7/ ص 230 – وسنن ابن ماجة – المقدمة – باب فيما أنكرت الجهمية جـ 1/ ص 67.

[2] متفق عليه. انظر: صحيح البخاري واللفظ له في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة). فتح الباري جـ 13/ ص 419. وصحيح مسلم في كتاب الإيمان – باب معرفة طريق الرؤية جـ 1/ ص 163.

[3] الاقتصاد في الاعتقاد ص 112.

[4] الباجوري بشرح الجوهرة جـ 2/ ص 17 و18 بتصرف يسير. والآية الكريمة من (سورة المطففين/ آية 15).

[5] انظر: مقالات الإسلاميين جـ 1/ ص 218، والمواقف ص 503، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح – الباب 65 – في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة ص 196- 241.

النـــــــــار

إن كان الله سبحانه وتعالى أكرم المؤمنين بجنات النعيم،فإنه أهان وأذل الكافين في نار جهنم جزاءً وفاقاً على ما اقترفوا من الفواحش والكبائر، فالنار هي المأوى التي أعدت لهم. وقد شمل الحديث عن النار في الكتاب الكريم والسنة المطهرة مساحة واسعة ليرتدع الإنسان عن الأسباب الموجهة لها وبعد إعداداً فائقاً للفوز برضوان الله تعالى. وقد عدد القرآن الكريم من أسماء جهنم ليلفت نظر الإنسان إلى هذا الأمر الخطير الذي ينتظره. فمن الأسماء الواردة لها:

- الهاوية: وهي المكان المنخفض جداً، قال الله تعالى{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}[1].

- الحطمة: لأنهما تحطم من فيها، قال تعالى{كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}[2].

- لظى: من التلظي، والتضاء النار: إلتهابها[3]. قال تعالى{كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى}[4]. والشوى جمع شواة هي جلدة الرأس، قال الأعشى:

قالت قتيلة ما له قد جللت شيباً شواته[5]

- سَقَر: من سقرته الشمس،لوحته وآذت دماغه بِحَرها[6]. قال تعالى: {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}[7].

- السعير: سعر–سعرا النار: أشعلها. سعرناهم بالنبل: أحرقناهم وأمضضناهم.

سعر الرجل: ضربته السموم[8]، قال تعالى{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}[9]. ومع أن هذه الأسماء تحدد لنا مفهوم النار ومدلولها إلا أن القرآن الكريم يصفها أيضاً، فمن وصفها:

---

[1] سورة القارعة/ آية 8 – 11.
[2] سورة الهمزة/ آية 4- 9.
[3] المنجد ص 723.
[4] سورة المعارج/ آية 15 و16.
[5] الجامع لأحكام القرآن جـ 18/ ص 186.
[6] المنجد ص 339.
[7] سورة المدثر/ آية 26- 28.
[8] المنجد ص 334.
[9] سورة الملك/ آية 5.

1- لها أبواب: قال تعالى{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}[1]. وهذ الأبواب لا تفتح لهم إلا بعد أن يصلوا إليها تبكيتاً لهم وإزدراءً بهم، قال تعالى{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[2].

2- وهي فظيعة موقدة وشررها عظيم كلما خبت ازدادت سعيرا قد وكل الله سبحانه بها ملائكة، يقول الله تعالى{قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[3].

ويقول سبحانه{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ}[4].

وقال سبحانه{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}[5].

وقال سبحانه{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}[6]. إنها نار فظيعة حقاً وقودها الناس والحجارة فأهلها أهون على الله تعالى من الحجارة فهم في مهانة الحجارة ورخصها وقذفها دون إعتبار ولا رعاية، يقول سبحانه{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[7].

فما أفظع هذه النار التي توقد بالحجارة، عليها ملائكة موكلون بها لهم خصائصهم التي تتناسب مع شدتها وغلظتها، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ناركم هذه التي يوقد ابن آدم

---

[1] سورة الحجر/ آية 43 و44.
[2] سورة الزمر/ آية 71.
[3] سورة التوبة/ آية 81 و82.
[4] سورة الواقعة/ آية 41 – 44.
[5] سورة المرسلات/ آية 28 – 34.
[6] سورة الإسراء/ آية 97 و98.
[7] سورة التحريم/ آية 6.

جزءٌ من سبعين جزءاً من حر جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء كلها مثل حرها"[1].

3- إنها لا تشبع مما يلقى فيها، بل تطلب المزيد دائماً يقول سبحانه{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}[2]. فالله سبحانه وتعالى يخبر أنه يقول لجهنم يوم القيامة هل إمتلأت؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها فيلقى فيها وهي تقول هل من مزيد؟ أي هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث[3].

4- وأنها تحيط بالمعذبين من كل جانب فلا يفلت منهم أحد: يقول سبحانه{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}[4].

ويقول سبحانه{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}[5].

ويقول سبحانه{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[6].

هذه بعض أوصاف النار في القرآن الكريم وهي أوصاف تشيب منها النواصي وتنخلع منها القلوب وتشخص منها الأبصار نعوذ بالله تعالى منها.

ولم يقتصر القرآن الكريم على وصف جهنم بل وصف أهلها أيضاً فمن أوصافهم:

1- إنهم لا يموتون فيها فيستريحوا ولا يحيون الحياة المرضية الهائلة بل يذوقون العذاب ألواناً، يقول سبحانه{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}[7].

---

[1] صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 149 و150 باب – شدة حر نار جهنم وبعد قعرها.
[2] سورة ق/ آية 30.
[3] تفسير القرآن العظيم جـ 5/ ص 398.
[4] سورة الأعراف/ آية 41.
[5] سورة الكهف/ آية 29.
[6] سورة العنكبوت/ آية 53- 55.
[7] سورة فاطر/ آية 36 و 37.

ويقول سبحانه{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا}[1].

ويقول سبحانه{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}[2].

2- طعامهم الزقوم وشرابهم من حميم: (والزقوم شجرة من أخبث أنواع الشجر المر المنتن الرائحة)[3].
يقول سبحانه{أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ}[4].

3- ولهم ثياب من نار، قال تعالى{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}[5].

4- والملائكة الموكلون بجهنم يسحبون أهلها والأغلال في أعناقهم. يقول ربنا تباركت أسماؤه{يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[6]. وقال سبحانه{خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ}[7]. ويقول سبحانه{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}[8].

5- وهم محجوبون عن الله تعالى ولا يعذرهم أحد، يقول الله تعالى{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}[9]. ويقول سبحانه{هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}[10].
هذه بعض صفات أهل النار كما بينها القرآن الكريم. ومن شدة أهوالها وفضاعة منظرها وطول العذاب فيها والمهانة والذل الذي يلاقيه أهلها فإن الإنسان يتمنى أن يفتدي نفسه منها بأعز ما يملك وأكرم من يعرف ولكن دون جدوى. قال تعالى{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ

---

[1] سورة النساء/ آية 56.
[2] سورة الأعلى/ آية 11- 13.
[3] العقائد الإسلامية ص292.
[4] سورة الصافات/ آية 62 – 67.
[5] سورة الحج/ آية 19 -22.
[6] سورة الطور/ آية 13 – 16.
[7] سورة الدخان/ آية 47 – 50.
[8] سورة القمر/ آية 47 و 48.
[9] سورة المطففين/ آية 15.
[10] سورة المرسلات/ آية 35 – 37.

الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[1]. إن هؤلاء الظالمين كانوا يبخلون باليسير منه في الدنيا بل كانوا يأمرون بالبخل أيضاً، فما دهاهم اليوم حتى يقدموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه. لاشك أن الأهوال الكبيرة التي لا تطاق هي التي جعلتهم في هذا الموقف ومما زاد الأمر سوءاً ما بدا لهم من الله تعالى من الأهوال التي كانوا لا يتوقعونها. قال تعالى{وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[2]. وهذه كذلك تزيد الموقف شدة وهولاً بل إذا تأملنا الآيات التالية لرأينا أن المجرم لا يدخر شيئاً مما يعتز به إلا وقدمه فدية بين يدي العذاب الشديد. يقول ربنا تعالى{يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ}[3]. ويقول سبحانه{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}[4]. لأن الأهوال أنستهم الروابط التي كانت بينهم !! فأي شدة أعظم من هذه وأي حريق أعظم من حريق جهنم ومع الحريق غضب الله الجبار.

وإذا كان القرآن العظيم سلط هذه الأضواء على هذه المواقف فإن السنة النبوية هي الأخرى ساهمت في هذا الإيضاح والبيان.

روى أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية {وقودها الناس والحجارة}. " فقال: أُوقد عليها ألف عام حتى إحمرت، وألف عام حتى إبيضت، وألف عام حتى إسودت، فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لهيبها"[5]. وعنه أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: " ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قط؟ قال منذ خلقت النار"[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بفرس يجعل كل خطو منه أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل عليه السلام، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شئ فهو يخلفه، ثم آتى على قومٍ ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شئ، قال: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة، ثم آتى على قوم على أدبارهم رقاع، وعلى أقبالهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم ورضف

---

[1] سورة الزمر/ آية 47 و 48.
[2] سورة الزمر/ آية 48.
[3] سورة المعارج/ آية 11- 14.
[4] سورة عبس/ آية 34- 37.
[5] مسند الإمام أحمد جـ 3/ ص 224، ورواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه جـ 4/ ص 612 – رقم الحديث الشريف 2591 – كتاب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب – 8 – منه.
[6] رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند جـ 3/ ص 224.

جهنم قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله، وما الله بظلامٍ للعبيد. ثم آتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملهاوهو يريد أن يزيد عليها، قال يا جبريل ما هذا؟ قال: رجل من أُمتك عليه أمانة الناس لا يستطيع أداؤها وهو يريد أن يزيد عليها، ثم آتى على قوم تقرض شفاهم وألسنتهم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، قال: يا جبريل ما هؤلاء؟ قال: خطباء الفتنة، ثم أتى على حجرٍ صغير يخرج من ثورٌ عظيم فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة فيندم عليها فيريد أن يردها فلا يستطيع، ثم أتى على وادٍ، فوجد ريحاً طيبةً ووجد ريح مسك مع صوت، فقال ما هذا؟ قال: صوت الجنة، تقول: يا رب ائتني بأهلي وما وعدتني، فقد كثر غرسي وحريري وسندسي وإستبرقي وعبقري ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ومائي ولبني وخمري، ائتني ما وعدتني، قال: لك كل مسلمٍ ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليَّ كفيته،إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا خلفَ لميعادي، قد أفلح المؤمنون، تبارك الله أحسن الخالقين، فقالت: قد رضيت. ثم أتى على وادٍ فسمع صوتاً منكراً، فقال: يا جبريل ما هذا الصوت؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول: يا رب ائتني بأهلي وبما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغسَّاقي وغسلييني، وقد بعد قعري، واشتدَّ حري، ائتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة، وخبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: قد رضيت"[1].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ويل وادٍ في جهنم، يهوي فيه الكافر أ ربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره"[2].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن، قالوا: يا رسول الله صلى الله وما جب الحزن أو وادي الحزن؟ قال: وادٍ في جهنم، تتعوذ منه جهنم كل يومٍ سبعين مرة، أعده الله للقرَّاء المرائين"[3].

---

[1] رواه البزار عن الربيع بن أنس عن أبي العالية أو غيره عن أبي هريرة. انظر: الترغيب والترهيب جـ 4/ ص 456، رقم الحديث 11 – كتاب صفة الجنة والنار – الترهيب من النار أعاذنا الله منها بمنه وكرمه.

[2] رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في المسند جـ 3/ ص 75 رقم الحديث الشريف 3863. انظر: الترغيب والترهيب – كتاب صفة الجنة والنار – فصل في أوديتها وجبالها، رقم الحديث الشريف 32 – جـ 4/ ص 465.

[3] رواه البيهقي بإسنادٍ حسن. انظر: الترغيب والترهيب جـ 4/ ص 468 – كتاب – صفة الجنة والنار – فصل في أوديتها وجبالها. وسنن الترمذي رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 512 رقم الحديث الشريف 2383 كتاب الزهد – باب ما جاء في الرياء والسمعة.

وعن أب هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صنفان من أهل النار لم أرهما، قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس. . . ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ رؤوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا"[1].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يؤتى بالعالِم يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحا، فيطيف به أهل النار فيقولون: مالك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} ثم قال: لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه!"[3].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال وهو يخطب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه"[4].

وعن سمرة بن الجندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته"[5].

تلك نبذ مما سلط عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الأضواء، وهي مما يوقظ العقل ويهدي الراشد إلى التأمل والاستعداد للدار الآخرة.

---

[1] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – كتاب اللباس والزينة – باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات – انظر: صحيح مسلم بشرح النووي رحمهما الله تعالى جـ 14/ ص 109 و110 – ورواه أيضاً في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب – جهنم أعاذنا الله منها – انظر: صحيح مسلم بشرح النووي رحمهما الله تعالى جـ 17/ ص 190.

[2] رواه الإمام مسلم في صحيحة في كتاب الزهد والرقاق – باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله – جـ 8/ ص 224.

[3] رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه في كتاب – صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 4- ما جاء في صفة شراب أهل النار، رقم الحديث الشريف 2585 – جـ4/ ص609.

[4] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه كتاب الأدب جـ 8/ ص 144 – وكتاب الإيمان والنذور جـ 8/ ص 173.
ورواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه في كتاب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 12 – رقم الحديث الشريف 2604 – جـ 4/ ص 618.

[5] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها ولأهلها باب شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين جـ 8/ ص 150.

من ثمرات الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله تعالى، بمعنى أن الإنسان لا يكون مؤمناً باليوم الآخر إلا إذا كان مؤمناً بالله تعالى، لذلك قرن الله تعالى بينهما في القرآن الكريم، فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}[1].

وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[2].

وقال جل جلاله وعن نواله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[3].

ومن ثم فإن ما ذكرت فيما سبق من ثمرات الإيمان بالله تعالى يمكن أن تكون أيضاً ثمرات لعقيدة الإيمان باليوم الآخر وأضيف إليها ما يأتي:

1- توصل الإنسان إلى أعلى درجات الالتزام بدين الله عز وجل: لأن هذه العقيدة تجعل الإنسان في يقظة دائمة، وتدبر دائم، وتزهّد في عينيه عرض الدنيا، فيستعلي عليها في أزهى صور الاستعلاء. وتأمل هذه الآية: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[4]. فهي امرأة أعظم ملك- وهي في قصر فرعون أمتع مكان، تجد فيه المرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، وآثرت عليه ثواب الله تعالى. . ولم تعرض عنه فحسب بل اعتبرته شراً وبلاءً تستعيذ بالله تعالى منه، وتطلب النجاة فاستحقت أن تكون مضرب الأمثال. وتأمل قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[5]. هذه البيعة الرهيبة كيف تنفَّذ إن لم يكن هنالك يقين وإيمان بالجنة؟ عونك اللهم فإن العقد رهيب. .

قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبدالله بن رواحة — رضي الله عنه — لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة".

---

[1] سورة البقرة/ آية 8.
[2] سورة البقرة/ آية 62.
[3] سورة البقرة/ آية 126.
[4] سورة التحريم/ آية 11.
[5] سورة التوبة/ آية 111.

قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل- هكذا. . "ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل". . لقد أخذوها صفقةً ماضيةً نافذةً بين متبايعين، انتهى أمرها، ولم يعد إلى مردٍ من سبيل[1].

وهكذا فإن الوعد بالجنة كفيلٌ لبذل الأرواح والأنفس والأموال، وكفيلٌ لإيثار التعب والشدة على الراحة والنوم، إنه الإيمان بالجنة يفعل العجب العجاب. ومن هنا فقد بنيت الأحكام الشرعية على عقيدة الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر. يقول ربنا سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[2]، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[3]، ويقول سبحانه: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[4]، ويقول أيضاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[5]، وقال سبحانه: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}[6].

2- إن البحث عن الخلود مطلبٌ إنساني وركوز في الفطرة، فلما خلق الله تعالى أبانا آدم عليه السلام جعله في الجنة، وتكفَّل له بالطعام والشراب والكساء، فقال سبحانه: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى}[7]، فهذا كله مضمون، لكن بقيت الرغبة في البقاء، والنفس البشرية ضعيفة تجاه هذه الرغبة، ومن هذه الثغرة نفذ إليه الشيطان،{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}[8]. وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان لا يهدأ باله إلا بالاطمئان على هذا الجانب من نفسه، فجاءت عقيدة الإيمان باليوم الآخر فأراحت بال الإنسان، وأدخلت السرور إلى قلبه، ولا شك في أن الإنسان المخزون القلق سلوكاً وحركةً في الحياة وتحملاً للتكاليف والتبعات والمشقات.

---

[1] في ظلال القرآن جـ 4/ ص 315 – بتصرف يسير – وقصة هذه البيعة وردت في كتب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. انظر: فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص 156 – 163. وفقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص 167 – 170. ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – لمحمد رضا – ص 124 و125.

[2] سورة البقرة/ آية 104.

[3] سورة البقرة/ آية 153.

[4] سورة البقرة/ آية 228.

[5] سورة النساء/ آية 59.

[6] سورة التوبة/ آية 44 و45.

[7] سورة طه/ آية 118 و119.

[8] سورة طه/ آية 120.

3- إصلاح الحياة الدنيا: لأن عقيدة الإيمان باليوم الآخر تجعل الدنيا مزرعةً للآخرة، فالجهاد في الحياة لإصلاحها، ودفع الشر عنها وتطهيرها من مظاهر الفساد والتردي، ورد الاعتداءات والتجاوزات عن سلطان الله تعالى فيها، وإزاحة الطواغيت عنها، وتحقيق الخير والعدل للناس فيها. كل ذلك زاد المؤمن للدار الآخرة. يقول سبحانه وتعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1].

فإذا أسست هذه الأعمال على الطمع بما عند الله تعالى والتطلع إلى رحمته سبحانه، ازدهرت الدنيا وبارك الله سبحانه للمؤمن فيها. عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له، ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة"[2].

ومنه قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}[3]، والحرث معناه الكسب والعمل ومنه قول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: واحرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، ومنه سمي الرجل حارثاً. قيل (نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ) أي نعطيه الدنيا مع الآخرة"[4]. ومنه أيضاً قول الباري جل جلاله وعم نواله: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[5]. وهذا الإصلاح غير مقصورٍ على الجانب الاقتصادي فقط، وإنما يراد به عموم الجوانب، فالأمن والسلام والطمأنينة مظهرٌ من مظاهر المجتمع المؤمن بالدار الآخرة ذاك لأن هذه العقيدة تجعل طهارة القلوب والجوارح سبيلاً للنجاة في الدار الآخرة، يقول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[6].

ويقول سبحانه: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[7]. فمن هذا النص القرآني الكريم يطل الإنسان على الفرد المسلم النظيف الطاهر القانت الذاكر الشاكر الصابر، العائد إلى الله تعالى والواقف بين يديه سبحانه لا يتجاوز الحدود، ولا يقصر في واجب، عزيز بدين الله، كبيرٌ في منهج الله، يحس بالقوة ويشعر بالكرامة، إنه لا يخضع إلا لله، وإذا مسه طائفٌ من الشيطان تذكر فأبصر،

---

[1] سورة التوبة/ آية 105.
[2] رواه ابن ماجة رحمه الله تعالى في سننه جـ 2/ ص 1375 – رقم الحديث الشريف 4105.
[3] سورة الشورى/ آية 20.
[4] الجامع لأحكام القرآن جـ 16/ ص 19 و20.
[5] سورة الأعراف/ آية 96.
[6] سورة الشعراء/ آية 88 و89.
[7] سورة ق/ آية 31- 35.

واستروح نسمات الأمل، فهو إنسانٌ راقٍ، ولبنةٌ صالحةٌ لقيام المجتمع الصالح، ولا شك في أن المجتمع الذي تشيع بين أفراده السكينة والأمن، والطهارة والعفة، والرضا والأمل، مجتمعٌ سالكٌ سبل التقدم والرقي والاستقرار.

4- الاعتقاد بالآخرة يولد الشعور الكامل بأن وراء هذه الحياة حكمة؛ لأن الإنسان في هذه الحياة يرى الظالم يموت وكذا المظلوم، واليتيم الذي أُكِل ماله يموت، وكذا آكل مال اليتيم، فلو عاش الإنسان بعيداً عن الإيمان بالآخرة لحكم بتفاهة هذه الحياة، وإنها مسرحيةٌ هازلةٌ، لكنه حين يعتقد بأن المظلوم هذا سيصل إلى حقه، وإن الله تعالى سينتقم من ظلمه، وإن كل إنسان ينال جزاء عمله، فإن نظرته إلى الحياة ستتغير حتماً، فيرى ويبصر الحكمة من هذه الحياة. هذه بعض ثمار الإيمان بالآخرة، وهي ثمرات يجنيها المؤمن من هذه الدنيا، لكن ثمرات هذه العقيدة لا تقتصر على الدنيا بل تشمل الآخرة معها، والثمرات الأخروية لهذه العقيدة تنال من لحظة احتضار الإنسان، والفصول المتقدمة بينت أنواعاً منها فاكتفى بها، ولك أن تتأمل الآيات الآتية لتزداد بهجةً وسروراً، ونوراً ويقيناً:

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[1].

ويقول سبحانه: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّار}[2].

وقال سبحانه: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا}[3].

---

[1] سورة النحل/ آية 30- 32.
[2] سورة الرعد/ آية 35.
[3] سورة الفرقان/ آية 11- 16.

الباب الثالث

إعداد الإنسان من جهة العبادات

وفيه فصلان:

الفصل الأول: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

الفصل الثاني: واتبع سبيل من أناب إليَّ

الباب الثالث

إعداد الإنسان من جهة العبادات

الفصل الأول/ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره

تمهيد:

ليست العبادة في الإسلام أمراً على هامش الحياة، بل هي من صلب الدين، ومن أهم المظاهر الدالة على صدق اليقين، إنها المبدأ الذي من أجل تقريره بعث الله سبحانه الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل الكتب، فكان الأمر بالعبادة الصيحة الأولى في كل رسالة. يقول ربنا جل جلاله وعم نواله مخاطباً حبيبه وحبيبنا محمداً صلى الله عليه وسلم: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[1]. ويقول سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}[2]. ويقول سبحانه: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}[3].

وحين ختمت الرسالات السماوية برسالة الإسلام، وختمت النبوة بسيدنا محمدٍ خير الأنام عليه الصلاة والسلام، أكَّد الله سبحانه هذه الحقيقة، وصرَّح بأن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله تعالى رباً ليعبدوه، فقال سبحانه في القرآن العظيم: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[4]. هذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله تعالى على بني آدم: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}[5].

---

[1] سورة الأنبياء عليهم السلام/ آية 25.
[2] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 25 و26.
[3] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 84.
[4] سورة الذاريات/ آية 56- 58.
[5] سورة يس/ آية 60 و61.

مفهوم العبادة

لغةً: الخضوع، الطاعة، الإنقياد. جاء في مختار الصحاح "وأصل العبودية: الخضوع والذل. و(التعبيد) التذليل يقال طريق (معبد). و(العبادة) الطاعة. و(التعبّد) التنسك"[1].

وعن الأنباري أنه قال: فلان عابد أي أنه الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره. وعن الأزهري أنه قال: لا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله تعالى. وعن الليث أنه قال: يقال للمشركين عبدة الطاغوت، ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله"[2]. وجاء في النجد: " عبد- عبادة وعبودية ومعبداً ومعبدة الله وحده وخدمه وخضع وذل وطاع له، يقال ما عبدك عني: ما حبسك عني"[3].

وفي الإصطلاح: هي غاية الخضوع والإنقياد لله رب العالمين بإمتثال أوامره واجتناب نواهيه. "وهذا الامتثال ناشئ عن استشعار القلب عظمة المعبود"[4].

ويقول الإمام ابن تيمة رحمه الله تعالى: "العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل بغاية المحبة له"[5]. فعنصر المحبة لله تعالى له آثره الكبير في معنى العبادة اصطلاحاً- يقول الحق تبارك وتعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[6].

فانظر رحمك الله تعالى كيف جعل الإتباع من مستلزمات المحبة الصادقة، والانفلات من مقتضيات الكفر المانع من محبة الله تعالى. فالعبد يحب الله سبحانه فيعبده، والكافر يترك العبودية لله سبحانه فيكرهه الله عز وجل. ومما يوضح هذا قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[7].

---

[1] مختار الصحاح ص 408 – باب العين.
[2] انظر: مادة عبد في لسلن العرب.
[3] المنجد ص 283.
[4] تفسير المنار جـ 1/ ص 56 و57.
[5] العبودية – ص 9 -11.
[6] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 31 و32.
[7] سورة المائدة/ آية 54.

أنواع العبادات

للعبادة في الإسلام معناها الشامل، فهي تشمل كما يفهم من تعريفها السابق كل مأمور به وكل منهي عنه، فليس الإمتثال بالمأمور عبادةٌ فقط، بل اجتناب ما نهى الله عنه عبادةً أيضاً، إذ فيه معنى الخضوع والانقياد لله تعالى، ومن ثم فقد تعددت أوجه العبادة في الاسلام وتنوعت مظاهرها، وكثرت مجالاتها، فشملت الحياة كلها وعمت كيان الإنسان كله ظاهره وباطنه. يقول ابن تيمة رحمه الله تعالى: " العبادة: هي اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة. فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وآداء الآمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة"[1]. وهكذا فللعبادة في الإسلام آفاقها الرحبة، فهي تشمل الفرائض والأركان، وما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعي من صلاة وصدقة وصيام وحج وتلاوة وتسبيحٍ وتحميد، وإنابةٍ إلى الله تعالى وإخلاص الدين له، والآداب المتبعة في مجالات الحياة كلها من معاملات وعقود ومناكحات وأخلاق. فالدين كله داخل في العبادة لأن هذه الكلمة تتضمن هي الأخرة معنى الخضوع والانقياد والتذلل[2]. ولهذا نجد القرآن العظيم يخاطب المؤمنين بالأوامر التكلفية التي تتناول جوانب شتى من الحياة.

فيقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[3].

ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[4].

ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}[5]. ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}[6]. ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[7]. ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[8].

---

[1] العبودية، ص 38.
[2] انظر المنجد ص 231 وترتيب القاموس المحيط جـ 2/ ص 242 و243.
[3] سورة البقرة/ آية 153.
[4] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 102.
[5] سورة المائدة/ آية 1.
[6] سورة المائدة/ آية 87 و 88.
[7] سورة الأنفال/ آية 15 و16.
[8] سورة التوبة/ آية 28.

ويقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[1].

ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[2].

وقال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[3].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}[4].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}[5].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}[6].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[7].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[8].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[9].

---

[1] سورة التوبة/ آية 38 و39.
[2] سورة النور/ آية 21.
[3] سورة الأحزاب/ آية 41 و42.
[4] سورة الأحزاب/ آية 70 و 71.
[5] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم/ آية 33.
[6] سورة الحجرات/ آية 1 و2.
[7] سورة الحجرات/ آية 6.
[8] سورة الحجرات/ آية 11 و12.
[9] سورة الحديد/ آية 28.

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[1].

فبتأمل هذه الآيات وغيرها وهي كثيرةٌ جداً يتوصل الإنسان إلى المساحة الواسعة لدائرة العبادة في الإسلام، وتلك والله الحجة البالغة على هيمنة الشريعة الإسلامية على التصرفات الإنسانية، وعلى هذا فإن كل أبواب الفقه الإسلامي داخلةٌ ضمن دائرة العبادات الإسلامية.

فتقسيم الفقهاء أبواب الفقه الإسلامي إلى عبادات ومعاملات ومناكحات وسير ووصايا ومواريث وغيرها لا يعني أبداً أن هذه الأبواب لا تدخل في دائرة العبادات الإسلامية ؛ ذلك لأن المسلم مأمور بالتزام أمر الله سبحانه وتعالى واجتناب نواهيه في كل تصرفاته. فحين يبيع ويشتري لا بد له من تأسيس عقد البيع والشراء على أسس الشريعة الغراء وإلا كان البيع باطلاً أو فاسداً وحين يجاهد فباسم الله تعالى, وحين يأخذ الغنائم فبأمر الله تعالى.

وتأمل قول الله عز وجل: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}[2]. وإذا أراد أن يتزوج فلابد من إنشاء عقد الزواج حسب شروط الشريعة السمحاء وإلا كان العقد باطلاً أو فاسداً لا يترتب عليه آثر من الآثار. وحين يخالط الناس فيصبر على آذاهم ويُعّلم جاهلم وينصح طالحهم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحب لإخوانه ما يحب لنفسه، ويكره الظالمين ولا يواليهم ويهش ويبش في وجه إخوانه، وما إلى ذلك من الأخلاق الحميدة والصفات الجميلة عبادة يتقرب بها المسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وإليك حديثاً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصور لك هذا المفهوم في روائع من كلماته، لو كتبتها بالتبر على أوراق لجين ما وفيتها حق قدرها. " تبسمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وارشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الردئ البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة"[3].

---

[1] سورة المجادلة/ آية 9- 11.

[2] سورة الحشر/ آية 5.

[3] رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه، كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم/ باب 36 – ما جاء في صنائع المعروف – ج - 4/ ص 299.

من ثمرات العبادات في الإسلام

وأعني بالعبادات هنا الفرائض الأساسية والشعائر الكبرى في الإسلام التي حددت الشريعة لها مواقيت وكيفيات ومقادير لا محيد عنها، ولا مجال للتبديل والتغيير فيها. والأصل في العبادات الالتزام بها على أنها امتثالٌ لأمر الله تعالى، وأداءٌ لواجب الشكر على نعمه سبحانه التي لا تعد. قال ربنا سبحانه: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[1].

وليس من اللازم أن يعرف الإنسان أسرار هذه العبادات ويجني ثمراتها، بل لو لم يعبد الله سبحانه إلا لجني ثمرات العبادة لكان عابد منفعةٍ، وطالب غنيمةٍ، وأين هذا من أصل العبادة؟ إن الأصل فيها – إضافةً إلى ما ذكرت – أنها ابتلاء لعبودية الإنسان لربه، فالمؤمن الحق هو الذي يعبد الله تعالى، ويمتثل أوامره على أنها أوامر الله وكفى، وحسب الإنسان أن يعلم أن الله تعالى خالقٌ، فهو أدرى وأعلم بما ينفع الإنسان وما يضره، وأنه سبحانه غنيٌّ كل الغنى عن عباده، فلا تنفعه طاعة مخلوقٍ، ولا تضره معصيته. قال سبحانه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ}[2].

وقال سبحانه: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[3].

ومما يزيد هذا المعنى جلاءً ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه سبحانه: " يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد في ملكي شيئاً،يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد فسألوني فاعطيت كل إنسانٍ مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه". قال سعيد بن عبدالعزيز رضي الله عنه، كان أبو إدريس إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه، رواه مسلم[4].

---

[1] سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام/ آية 34.

[2] سورة سيدنا لقمان عليه السلام/ آية 12.

[3] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 97.

[4] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب – باب تحريم الظلم – جـ 8/ ص 17، والإمام البخاري رحمه الله تعالى في الأدب المفرد ص 171 – رقم الحديث 490 – وابن ماجة رحمه الله تعالى في سننه بلفظ فيه اختلاف، جـ 2/ ص 1422 – وأورده الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار ص 367.

وكما أن الله سبحانه أخفى كثيراً من أسرار الكون والحياة عن الإنسان فإنه أخفى بعض أسرار العبارات عنه ليبقى الإبتلاء قائماً وليظل الإنسان بالأشواق متطلعاً إلى ما وراء المجهول، أملاً في الوصول، معترفاً بالعجز والقصور، حاضراً في دائرة العبودية لله المعبود، تحت أنوار وتجليات قوله تعالى: {وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[1].

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: " إن العبادات لصحة قلب الإنسان كالأدوية لصحة بدنه، وليس كل إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه إلا الطبيب أو العالم الذي اختص بمعرفته وكل مريض يقلد الطبيب فيما يصف له من دواء ولا يناقشه فيه، فكذلك بان لي على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدّرة من جهة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل. وكما أن إختلاف الأدوية في المقدار والوزن والنوع لا يخلو من سر هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، فلا يخلو عن سر من الأسرار، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة، ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط–بطريق العقل–لها حكمة، أو ظن أنها ذكرت على الإتفاق لا عن سر إلهي فيها"[2]. ولعل الإمام رحمه الله تعالى يقصد بكلمة الحكمة هنا العلة إذ العبادات لا تقلل بالإتفاق لأنه من " الأحكام التي استأثر الله بعلم عللها، ولم يمهد السبيل إلى غدراك هذه اعللك ليبلو عباده ويختبرهم، هل يمتثلون وينفذون ولو لم يدركوا ما بني عليه الحكم من علة، وتسمى هذه الأحكام التعبدية أو غير معقولة المعنى"[3]. أما الحِكَم فمن الممكن الوصول إلى بعضها عن طريق العقل كما يمكن بطريق النقل – فقد وردت نصوص في الكتاب الكريم والسنة المشرفة تكشف بعض الحكم لقسم من العبادات الرئيسة الإسلامية. فمنها قول الله تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[4].

وقوله سبحانه: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[5]. فمن حكمها هنا أنها كفارات ويؤكدها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " أرايتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شئ؟ قالوا: لا

---

[1] سورة البقرة/ آية 285.
[2] قضية التصوف المنقذ من الضلال – ص 386 و387.
[3] أصول الفقه – للشيخ الخلاف رحمه الله تعاى ص 62.
[4] سورة سيدنا هود عليه السلام/ آية 114.
[5] سورة العنكبوت/ آية 45.

يبقى من درنه شئ، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"[1]. وسيأتك إن شاء الله تعالى في ثمرات العبادات بعض منها أيضاً، فهذه النصوص صرّحت بحكمة من حكم الصلاة، ولقد توصل العلماء والمفكرين بعقولهم إلى كثير من الحكم التي أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه العبادات، وهذا هو الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يؤلف كتاباً بعنوان " أسرار الصلاة ومهماتها" وهو مطبوع متداول يقول في مقدمته: " أما بعد: فإن الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس الربات، وغرة الطاعات، ولقد استقصينا في فن الفقه في بسيط المذهب ووسيطه ووجيزه أصولها وفروعها، صارفين جمام العناية إلى تفاريعها النادرة، ووقائعها الشاذة، لتكون خزانة للمفتي منها يستمد ومعولاً له إليها يفزع ويرجع. ونحن الآن في هذا الكتاب، نقتصر على ما لا بد للمزيد منه، من أعمالها الظاهرة، وأسرارهاالباطنة، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والنية، ما لم تجر العادة بذكره في فن الفقه"[2].

أما البحث عن الحكم التفصيلية لكل جزئية من جزئيات العبادات الإسلامية فأمر مردود كما قال الإمام الغزالي رحمه الله فيما سبق، ولو أن هذا الباب فتح لتوجه الاعتراض لكل وضعٍ من أوضاع العبادات، بل للأوضاع الدنيوية أيضاً. فالأسلم أن تقول: أن العبادات شعائر توفيقية بأوضاعها وأشكالها ومقاديرها، وأنها جاءت لحِكَم، يتوصل الإنسان إلى بعضها، ويبقى البعض الآخر في علم الله تعالى. فلراحة البال واطمئنان القلب "لا مناص في النهاية من أسبابٍ توقيفية يكون التسليم بها أقرب إلى العقل من المجادلة فيها". 3 وإني أذكر بعض ثمرات العبادات في الإسلام مستنيراً بكتاب الله تعالى وهدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، مبيناً لك بالترغيب والترهيب كيف أن الإسلام العظيم جعل العبادات وسيلة من وسائل إعداد الإنسان للنجاة في الدار الآخرة. فأقول وبالله التوفيق: إن للإنسان في نظر الإسلام منزلةٌ رفيعة، ومكانة عزيزةٌ منيعةٌ، وهذا ما علمته مما مضى، وهو يزداد سمواً ورفعةً كلما ازداد علماً بالقرآن الكريم وسنة النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم، وقف متأملاً مبادئ وقواعد الشريعة الغراء وثمرات العبادات مما يزيدك وضوحاً في هذا المقام، فإليك بعضها:

1-تقيم الإنسان في مقام العبودية لله تعالى: وهو أشرف المقامات عند الله عز وجل، مدح الله تعالى به النبيين عليهم الصلاة والسلام والملائكة الكرام والصالحين رضي الله عنهم أجمعين، فقال سبحانه: {لَنْ

---

[1] انظر: رياض الصالحين ص 363. والحديث رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه – كتاب مواقيت الصلاة: باب الصلوات الخمس كفارة، جـ 1/ ص 133، والإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب المشي إلى الصلاة تمحى بها الخطايا وترفع بها الدرجات جـ 2/ ص 131 و132. والإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه كتاب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب- 5 – مثل الصلوات الخمس – رقم الحديث الشريف 2868 جـ 5/ ص 139. والإمام النسائي رحمه الله تعالى في سننه كتاب الصلاة – باب فضل الصلوات الخمس جـ 1/ ص 230 و231.

[2] أسرار الصلاة ومهماتها/ المقدمة ص 68 و69.

[3] حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص 152- 154.

يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}[1].

وقال سبحانه: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا}[2].

وقال سبحانه: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا}[3]. وقال سبحانه: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}[4]،وقال سبحانه: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[5]، وقال سبحانه: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}[6]، وتوَّج الله سبحانه وتعالى هذا المقام هيبةً وجلالاً حين مدح به خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام فقال سبحانه: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[7]. وقال سبحانه: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[8]. وقال جل جلاله وعم نواله: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[9]. وقال عز من قائل: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}[10].

فلا عجب بعد هذا أن يعتز المسلم بكلمة العبد هذه، ويعلن عنها في عزةٍ وإباء، فهذا ربعيّ بن عامر رضي الله عنه يقف أمام رستم قائد قواد الفرس، ورستم هذا في هيله وهيلمانه، وأبهته وسلطانه، حوله الخدم والحشم، والنمارق الموشاة بالفضة والذهب، فيسأل بن عامر: من أنتم؟ فيجيب في عزةٍ مؤمنة إجابةً خلَّدها التاريخ: نحن قومٌ ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. . ولا عجب أن تقرأ لشاعر مؤمن يناجي الله تعالى في عبودية عزيزة بالله، متذللة للقهار الجبار، غنيةٍ بالله الغني المغني، قائلاً:

---

[1] سورة النساء/ آية 172 و173.
[2] سورة الإسراء/ آية 3.
[3] سورة الكهف/ آية 65.
[4] سورة سيدتنا مريم عليها السلام/ آية 30.
[5] سورة ص/ آية 30.
[6] سورة الأنبياء عليهم السام/ آية 26 و27.
[7] سورة البقرة/ آية 23.
[8] سورة الأنفال/ آية 4.
[9] سورة الإسراء/ آية 1.
[10] سورة الفرقان/ آية 1.

ومما زادني شرفاً وعزاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك "يا عبادي" وأن أرسلت أحمد لي نبيا[1]

ورضي الله عن الإمام علي كرَّم الله وجهه حيث يقول: "كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي شرفاً أن تكون لي رباً، اللهم إني وجدتك إلهاً كما أردت، فاجعلني عبداً كما أردت"[2].

فبتحقيق العبودية لله تعالى تكون السيادة للإنسان في هذا الكون، ويكون أهلاً للخلافة عن الله تعالى، وإن لم يعط الإنسان عبوديته لله تعالى يكون قد أقام نفسه مقام الحيوان، والنبات، والجماد. وهذه حقيقةٌ أكَّدها ويؤكِّدها القرآن الكريم، إن القرآن الكريم قد ألحَّ على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله تعالى، وتأمَّل هذه الآيات:

يقول سبحانه: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[3].

وقال سبحانه: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ *وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[4].

وقال سبحانه: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[5].

2- تنشيط وتنمية الطاقات الروحية عند الإنسان: الإنسان مركب من الجسد والروح، وكما أن الجسد ينمو بالغذاء ويزداد قوةً ونشاطاً، فكذلك الروح، فإنها تسمو إلى الآفاق وتصل إلى ملكوت الله تعالى، وتتضاعف طاقاتها بتقديم الغذاء لها، وغذاؤها عبادة الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[6].

وقال سبحانه: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ}[7].

وقال سبحانه: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}[1]. فقد أثبتت هذه الآيات الفلاح والتزكية للمصلين، ومن معاني التزكية

---

[1] الإيمان والحياة ص 75.
[2] أسرار الصلاة ومهماتها ص 26.
[3] سورة البقرة/ آية 74.
[4] سورة الأنفال/ آية 22 و23.
[5] سورة الجمعة/ آية 5.
[6] سورة الشمس/ آية 9 و10.
[7] سورة المؤمنون/ آية 1 و2.

الزيادة والنماء، وهي ملحوظةٌ في الجانب الروحيّ للإنسان العابد، وإذا سمت الروح فإنها تكون بعيدةً عن معصية الله تعالى، لأنها تكون قويةً، وكلما قويت ضعفت النفس الأمَّارة أمامها، وكذلك كيد اشيطان.

قال تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}[2].

والصلاة مناجاة لله تعالى، روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدينصفين ولعبدي ما سأل، فإذا قال " الحمدلله رب العالمين"، قال الله تعالى: " حمدني عبدي" وإذا قال" الرحمن الرحيم"، قال الله تعالى: " أثنى علي عبدي". وإذا قال: " مالك يوم الدين"، قال: "مجّدني عبدي"، أو " فوض الي عبدي". فإذا قال: " إياك نعبدوإياك نستعين"قال: "هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل". فإذا قال: "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" قال: " هذا لعبدي ولعبدي ما سأل". [3]

والمناجاة: هي مخاطبة الله تعالى مباشرة وهي تشعرالمرء بوجود الله تعالى وجوداً حقيقاً لا نظرياً، وأنه سبحانه قريب من العبد يسمع دعاءه، ويلبي نداءه، ويستجيب له، فإذا واظب المصلي على هذه المناجاة خمس مرات في اليوم والليلة، تيقظت قواه الروحية وأحس بأن الله تعالى معه يمده بالقوة والعون. وأنه سبحانه معه لا يتخلى عنه: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}الحج 38.

هذ ا من جانب. ومن جانب آخر فإن الصلاة إنتزاع للنفس من ماديات الحياة وآلامها، وتوجيه لها إلى الله تعالى بالذكر، والدعاء، والضراعة، والخضوع لكبريائه وعظمته، وهذا من شأنه أن يظفي على النفس السكينة والرضا، ويجعلها تشعر بفيض من السعادة فتتجدد قواها، ويحفزها ذلك الى العمل الجاد والمثمر، والأمل والتطلع الى رحمة المولى جل جلاله وعم نواله. ولهذا فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال رضي الله عنه: " أرحنا بها يا بلال "[4].

---

[1] سورة المعارج/ آية 19- 23.

[2] سورة الحجر/ آية 42.

[3] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب-الصلاة-باب-وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وانه اذا لم يحسن الفاتحة ولا امكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها ح2 ص9.

ورواه الامام أبو داود في سننه في كتاب الصلاه-باب- من ترك القراءة في صلاته(بفاتحة الكتاب)ج1ص216و217.

ورواه الامام النسائي رحمه الله تعالى في سننه في كتاب-الإفتتاح- ترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب ح2ص135و136.

ورواه الامام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم –باب 2- " ومن سورة الفاتحة الكتاب" رقم الحديث 2953 ج 5 ص 184 و 185. انظر: سنن ابن ماجه رحمه الله تعالى ج2 ص 1243.

[4] عزاه الحافظ العراقي لدارقطني في العلل، ولأبي داود رحمه الله تعالى من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح. انظر "إحياء علوم الدين جـ 1/ص165. وسنن أبي داود رحمه الله تعالى جـ 4/ ص 296و297 كتاب الأدب-باب في صلاة العتمة.

ويقول عليه الصلاة والسلام: " وجعلت قرة عيني في الصلاة"[1]. وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع الى الصلاة لأمر الله تعالى: {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[2]. "إننا نربط أنفسنا حين نصلي بالقوة العظمة التي تهيمن على الكون، ونسألها ضارعين أن تمنحنا قبساً منها نستعين به على معاناة الحياة، بل إن الضراعة وحدها كفيلة بأن تزيد قوتنا ونشاطنا، ولن تجد أحداً ضرع الى الله تعالى مرة إلا عادت عليه الضراعة بأحسن النتائج"[3].

3- تصحيح وتقويم السلوك: الإنسان كائن معقد، فيه غرائز متنوعة، وقوىً متضاربة، منها ما يدفع إلى الأنانية والأثرة، ومنها ما يغري بالتعاون والتكافل، ومنها ما يهبط بالإنسان إلى حضيض المادية ويصليه بنارها، ومنها ما يسمو به إلى الملكوت الأعلى. فهو مخلوقٌ مركب، في كيتنه جزءٌ أرضيّ، وجزءٌ سماوي، إنه جسدٌ وروح، ترى ما الذي يقوّم سلوكه ويهذّب غرائزه. يقول ربنا جل جلاله وعمَّ نواله: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[4]. ومن معاني (وأقم الصلاة لذكري) لتكون لي ذاكراً غير ناسٍ فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى: {لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}[5]. وإذا تحقق الإنسان في الذكر استقام سلوكه، وهدي إلى صراطٍ مستقيم، لأن الذكر ينوّر القلب ويصلحه، ويطرد وسوسة الشيطان، قال الله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}[6].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله تعالى: (كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤٌ صائم، والذي نفس محمدٍ بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما، إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه)"[8].

---

[1] قطعة من حديث رواه الامام الطبراني رحمه الله تعالى في المعجم الصغير م1 جـ 1/ ص262. والأمام النسائي رحمه الله تعالى في سننه كتاب عشرة النساء – باب حب النساء جـ7/ص61، وامام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده جـ 3/ ص128 و285. واليك الحديث الشريف بتمامه،عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " حبب إلي من الدنيا النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة".

[2] سورة البقرة/ آية 153.

[3] من كتاب (دع القلق) لديلكارنيجي ص299. الطبعة الثانية، وانظر كتاب العبادة في الاسلام ص221.

[4] سورة طه/ آية 14.

[5] تفسير الفخر الرازي جـ 22/ ص 19 و20.

[6] سورة الناس/ آية 1- 6.

[7] سورة البقرة/ آية 183.

[8] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في كتاب الصوم باب هل يقول إني صائم؟ جـ 3/ ص 32. والإمام مسلم في صحيحه – كتاب الصيام – باب فضل الصيام – جـ 3/ ص 157.

وجه الاستدلال به قوله صلى الله عليه وسلم: "والصيام جنة"، أي وقاية، وهي عامة تشمل الوقاية من الانحراف والانخراط في سلك الهالكين، كما تشمل الوقاية من غضب الله تعالى، وقال سبحانه وتعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1].

فبالمواظبة على هذه العبادات وغيرها تتربى النفس، ويستيقظ الضمير، فيحاسب الإنسان نفسه ويراقب حركته في الحياة فلا يظلم ولا يخون، لا يتطاول ولا يستكبر، لا يدعي ما ليس له، ولا يجحد ما عليه، ولا يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية، لسان حاله يقول ما قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

كيف يسرف في الآثام من أشربت قلبه روح العبادات؟! إنه لن يسرف أبداً، بل إن صدرت منه معصيةٌ في ساعة ضعفٍ بشرية سرعان ما ينيب إلى الله تعالى تائباً بقلبٍ خائف خاشع، وعين دامعةٌ باكية، يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}[2].

وكيف لا يكون العابد كذلك وهو مأمورٌ بمحاسبة نفسه ومحاربة هواها، يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (19) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}[3].

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا".

وعن ميمون بن مهران أنه قال: "لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه"[4].

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}[5]، لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه، وقال أيضاً: المؤمن قوَّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، ثم فسر المحاسبة فقال: المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات، حيل بيني

---

[1] سورة التوبة/ آية 103.
[2] سورة الأعراف/ آية 201.
[3] سورة الحشر/ آية 18 – 20.
[4] إحياء علوم الدين جـ 4/ ص 404.
[5] سورة القيامة/ آية 1 و2.

وبينك، وهذا حسابٌ قبل العمل, ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله – وهذا حسابٌ بعد العمل[1].

وهكذا فإن الضمير الذي يتربى في محراب العبادة الخالصة لضميرٌ حيٌّ يقظ، مرهف الحساسية، يجعل المؤمن العابد محاسباً نفسه قبل العمل قائلاً له: ما ذا تعمل؟ ولماذا تعمل؟ ولمن تعمل؟ ويحاسبها بعد العمل، ماذا عملت؟ ولماذا عملت؟ وكيف عملت؟ فهذه اليقظة كفيلةٌ بتحسين السلوك وتقويمه بما يجعل المرء مصدر خيرٍ لنفسه ولأهله ولأصدقائه بل للمجتمع حوله. وبهذه الثمرة تسعد الدنيا، ويقام العدل، وينشر الأمن والطمأنينة والسلام، وهي أهدافٌ كبيرةٌ يجاهد من أجل تحقيقها ذوو العقول السليمة والفطر المستقيمة، ولن تتحقق إلا تحت ظلال العبادة الحقة لله رب العالمين جل جلاله وعمَّ نواله.

4-وللعبادات ثمراتٌ اجتماعية: إذا كانت العبادات تكسب المؤمن قوةً في النفس، ورضا في القلب، وسلوكاً قويماً في الحياة، فإنها تجعل المؤمن عضواً نافعاً في المجتمع الذي يعيش فيه، وتخلق منه خليةً تعمل وتنتج ويعم خيرها وفضلها الناس جميعاً، والإسلام حبَّب في صلاة الجماعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صلاة الرجل في الجماعة تضعَّف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضَّأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطُ خطوةً إلا رفعت له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يحدث، اللهم صلِّ عليه اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاةٍ ما انتظر الصلاة" رواه الخمسة[2]. وأوجب الإسلام صلاة الجمعة كل أسبوع ولا تصح إلا بجماعة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[3].

5- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة. . رواه الخمسة إلا البخاري. وزاد أبو داود: وفيه تيب عليه وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مسيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس[4]. وعنه رضي الله عنه قال:

---

[1] إحياء علوم الدين جـ 4/ ص 404 و405.

[2] التاج الجامع للأصول جـ 1/ ص 246 و247. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب فصل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، جـ 2/ ص 121- 124.

[3] سورة الجمعة/ آية 9.

[4] التاج الجامع للأصول: جـ 1/ ص 272. وانظر: سنن الترمذي رحمه الله تعالى أبواب الجمعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في فضل يوم الجمعة، رقم الحديث 488، جـ 2/ ص 359. وسنن الإمام أبي داود رحمه الله تعالى – باب تفريع أبواب الجمعة، فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة – رقم الحديث الشريف 1046، جـ 1/ ص 274 و275. وسنن الإمام النسائي رحمه الله تعالى كتاب الجمعة - باب ذكر فضل يوم الجمعة – جـ 3/ ص 89 و90. وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى كتاب الجمعة – باب فضل يوم الجمعة جـ 3/ ص 6.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على أعواد منبره: "لينتهين أقوامٌ عن ودعهم الجمعات، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين". رواه مسلم والنسائي وأحمد[1].

وحببنا الإسلام في صلاة العيدين فقال سبحانه وتعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}[2].

وقال جل جلاله وعمَّ نواله: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}[3]. فقوله تعالى: (فصل لربك) أي "صلاة العيد، وهذا أمر فظاهره الوجوب، وعليه الحنفية، وقال الحنابلة أنها فرض كفاية على من تلزمه الجمعة. وقال المالكية والشافعية أنها سنة عين مؤكدة"[4]. . فاجتماع أهل الحي في اليوم خمس مرات مع اجتماعهم يوم الجمعة على مدى أوسع، ثم اجتماعهم للعيدين يقوي الروابط الاجتماعية، ويشد أواصر الصلات بين الجماعات، ويشيع الأخوَّة الإيمانية إلى درجة أن كل واحد يشعر بأنه أخٌ لكل من في المسجد، وأنه مساوٍ له، فتنمو روح المساواة الحقيقية، لا فرق بين غني وفقير، ورئيس ومرؤوس، بل ترى الكل في صفوف متراصَّةً في المسجد، والجميع متساوون كأسنان المشط الواحد. من بكَّر في الذهاب إلى المسجد احتل مكانه في مقدمة الصفوف أيَّاً كانت منزلته وعمله في الناس – يقول الدكتور محمد إقبال رحمه الله تعالى: "إن اختيار قبلةٍ واحدةٍ لصلاة المسلمين، أريد به أن يكفل وحدة الشعور للجماعة، وهيئتها على العموم تحقق الإحساس بالمساواة الاجتماعية وتقوّي أواصره، بقدر ما تتجه إلى القضاء على الشعور بالطبقات، أو تفوُّق جنس من المتعبدين على جنسٍ آخر. إن ثورةً روحيَّةً هائلةً تحدث لو حمل البرهميّ الأرستقراطيّ المحتال في جنوب الهند على الوقوف مع المنبوذ كتفاً إلى كتف في كلِّ يوم!!! إن وحدة الذات المحيطة بكل شيء التي تخلق جميع الذوات، وتكتب لها البقاء، هي التي تصدر عنها الوحدة الضرورية لجميع البشر، وانقسام البشر إلى أجناسٍ وأممٍ وقبائل قصد به – كما جاء في القرآن الكريم – سهولة التعارف لا غير، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[5].

وعلى هذا، فإن صلاة الجماعة في الإسلام إلى جانب ما لها من قيمة فكرية تثير الأمل في تحقيق الوحدة الضرورية للبشر كحقيقةٍ من حقائق الحياة، وذلك بالقضاء على جميع الفوارق التي ميزت بين إنسانٍ وآخر"[6].

---

[1] التاج الجامع للأصول: جـ 1/ ص 273. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى كتب الجمعة – باب التغليظ في ترك الجمعة جـ 3/ ص 10. وسنن الإمام النسائي كتاب الجمعة – باب التشديد في التخلف عن الجمعة جـ 3/ ص 88 و 89.

[2] سورة الأعلى/ آية 14 و15.

[3] سورة الكوثر/ آية 1- 3.

[4] التاج الجامع للأصول: في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم جـ 1/ ص 299. وانظر: مغني المحتاج جـ 1/ ص 310 – با صلاة العيدين – والمغني في فقه الإمام أحمد م 2/ ص 111 - باب صلاة العيدين – ونفس الباب من كتاب الاختيار لتعليل المختار جـ 1/ ص 85. وبلغة السالك لأقرب المسالك جـ 1/ ص 175. وحاشية العدوى على شرح أبي الحسن لرسالة ابن أبي زيد جـ 1/ ص 343.

[5] سورة الحجرات/ آية 3.

[6] تجديد الفكر الديني في الإسلام ص 108.

ثم إن هذا الاجتماع يؤدي إلى التعارف، فمعرفة عمل كلِّ أخ يحقق تسهيل الوصول إلى المنافع والخدمات، وتوجيهها في البناء الحضاريّ، وإذا كانت هذه بعض منافع صلاة الجماعة، فإن بقية العبادات تقويها وتزكزها وتجعل من المجتمعين صفاً واحداً بكل معاني الوحدة، فيظهر المسلمون المؤمنون بصفاتهم الإيمانية التي وصفهم الشارع بها. قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[1]. وقال جل جلاله وعمَّ نواله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[2]. ويقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[3]. من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً" وشبك بين أصابعه"[4].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[5]. فعبادة الصوم تقوي الشعور بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، إنها تذكير ما بعدها تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء، فهذا الإحساس العملي بالجوع أبلغ بالتذكير من الخطب البليغة المسموعة من الألسنة الفصيحة، فعند ذلك يأتي دور الزكاة والصدقات، فيقدم المؤمن ما تعب في تحصيله، وناله بعرق جبينه، وبمواصلة الساعات بالساعات في الكدح والعمل، يقدمه لأخيه المسلم الذي قعدت به الأسباب فلم يفلح في قوت يومه، فتشيع المودة والمحبة بين الفقراء والأغنياء، فيتطهر المجتمع كله، أغنياؤه وفقراؤه، من عوامل الهدم والتفرقة والحسد والحقد والهرج والمرج والصراع، ويتطهر الغني من الشح البغيض الذي قد يدفعه إلى سفك الدماء، أو بذل الأعراض، أو بيع الأوطان، وبهذا التطهير يستحق ثناء الله تعالى عليه، إذ يقول سبحانه: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[6].

---

[1] سورة الأنبياء عليهم السلام/ آية 92.

[2] سورة الحجرات/ آية 10.

[3] رياض الصالحين ص 88. وانظر: سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى – كتاب – صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب – 59 – رقم الحديث الشريف 2515 – وسنن الإمام النسائي رحمه الله تعالى – كتاب الإيمان وشرائعه، علامة الإيمان - جـ 8/ ص 115. وسنن الإمام ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 1/ ص 26. وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير – بزيادة – أو لجاره ما يحب لنفسه – جـ 1/ ص 49.

[4] رياض الصالحين ص 104. وانظر: صحيح الإمام البخاري - كتاب – المظالم والغضب – باب نصر المظلوم – جـ 3/ ص 160. وصحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب البر والصلة والآداب – باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم – جـ 8/ ص 20. وسنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى – كتاب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب – 18 – رقم الحديث الشريف – 1928 – جـ 4/ ص 287.

[5] رياض الصالحين ص 105. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى - كتاب البر والصلة والآداب – باب – تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم جـ 8/ ص 20.

[6] سورة الحشر/ آية 9.

ويتطهر ا لفقير من الحسد، تلك الآفة التي تقضُّ المضاجع، وتغري بالمفاتن، ولا شك أن الإحسان يستميل قلب الإنسان، فيكون الفقير عوناً للغني على الأقل بالدعاء له، فتشيع المحبة بين الفقراء والأغنياء، ويتيقن الفقير بأنه غير ضائعٍ في المجتمع، وأنه ليس متروكاً لضعفه وفقره ينخران فيه حتى يوديا به، بل هو في مجتمعٍ يعمل على مد يد المعونة له والتخفيف من آلامه وحرمانه، في عزةٍ وإباء، لأن الشرع لم يدع مجالاً للمزكين للاستعلاء على المستحقين؛ وذلك لأن إلزكاة تجبى من قبل الدولة، وتصرف من قبلها، وإذا قدر للأفراد أن يكونوا هم المعطين بأنفسهم، فالقرآن الكريم يحذرهم أشد التحذير من المن والعطاء، يقول الله تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[1].

فهذه العبادات وغيرها تجعل المجتمع فعلاً مجتمعاً واحداً، وتشيع مبادئ الخير والفضيلة بين أفراده، وتلك مزية للعبادات لن تجدها إلا في الإسلام العظيم، الذي رضيه الله تعالى للناس أجمعين. وللعبادات ثمراتها في الآخرة، فالعابد المخلص كريمٌ على الله تعالى، يحب الله لقاءه، ويكرم نزله، ويفيض عليه من فضله، وينزل عليه من رحمته، إنه واسع المغفرة والفضل، وهو الواسع العليم ذو الفضل العظيم، وإليك بعض النصوص التي تبين تلك الثمرات.

[1] سورة البقرة/ آية 262- 264.

ثمرات أخرى للعبادات

إن القرآن الكريم سلط الأضواء على ثمرات العبادات في الدار الآخرة، فبينت آياته ما أعده الله سبحانه للعابدين من قرة عين. . . ، فكان هذا البيان طريقةً من طرق القرآن الكريم لإعداد الإنسان للنجاة في الدار الآخرة. وقد مرَّ فيما سبق ذكر ثمرات الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، ولا شك في دخولها بما نحن في صدده، إذ الأعمال لا تقبل في الإسلام إلا إذا كانت مبنيةً على الإيمان الحق والعقيدة السليمة والنية الخالصة، لأن الله سبحانه وتعالى قال وقوله الحق: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}[1].

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[2].

وقال سبحانه وتعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[3].

وقال سبحانه: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}[4].

وقال سبحانه وتعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[5].

وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه". متفقٌ عليه[6].

---

[1] سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام/ آية 18.

[2] سورة النور/ آية 39 و40.

[3] سورة الفرقان/ آية 21- 23.

[4] سورة البينة/ آية 5.

[5] سورة الزمر/ آية 64- 66.

[6] رياض الصالحين ص 7. وانظر: سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب – 16- ما جاء فيمن يقاتل رياءً وللدنيا – رقم الحديث الشريف 1647. وصحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى – كتاب الإيمان والنذور: باب في النية في الإيمان جـ 8/ ص 175. وصحيح الإمامك مسلم رحمه اله تعالى في كتاب الإمارة – باب قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال جـ 6/ ص 48. وسنن الإمام النسائي رحمه الله تعالى – كتاب الطهارة – باب النية في الوضوء جـ 1/ ص 58 – 60.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)"[1]. رواه مسلم.

وعن أبي سعد بن أبي فضالة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا جمع الله الناس يوم القيامة ليومٍ لا ريب فيه نادى منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك"[2]. رواه الترمذي.

والآن، تعالى أخي القارئ إلى ثمرات العمل الصالح في الآخرة:

1-يدخلهم الله تعالى الجنة، ويعلي درجاتهم فيها. قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا * جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}[3].

وقال سبحانه: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[4].

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[5].

2-يكفر الله عنهم سيئاتهم ويبدلها حسنات: فقال سبحانه بعد أن ذكر جملةً من المعاصي والآثام، وأن مرتكبيها يضاعف لهم العذاب، قال بعدها: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}[6].

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}[7].

---

[1] التاج الجامع للأصول جـ 1/ ص 57. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى كتاب الزهد والرقائق – باب من أشرك في عمله غير الله – جـ 8/ ص 223.

[2] التاج الجامع للأصول جـ 1/ ص 59. وانظر: سنن ابن ماجة رحمه الله تعالىجـ 2/ ص 1406. وسنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 314. رقم الحديث الشريف 3154 – كتاب التفسير- باب في تفسير سورة الكهف.

[3] سورة سيدتنا مريم عليها السلام/ آية 59- 63.

[4] سورة طه/ آية 75 و76.

[5] سورة الأعراف/ آية 42 و43.

[6] سورة الفرقان/ آية 70 و71.

[7] سورة العنكبوت/ آية 7.

وقال سبحانه: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}[1].

3-يضاعف لهم الأجور ويزيدهم من فضله: يقول الله سبحانه: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}[2].

وقال سبحانه: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا}[3].

4-يؤمنهم ربهم من العذاب ويجعل لهم وداً: يقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[4].

وقال سبحانه: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا}[5].

وقال سبحانه: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}[6].

5-وزيادة في التكريم، يقرّب الله تعالى لهم الجنة ويجعل لهم خدماً من الولدان. يقول الله تعالى: {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[7].

ويقول سبحانه: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}[8].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً منهم إن الله على كل شيء قدير.

---

[1] سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم/ آية 2.
[2] سورة سبأ/ آية 37.
[3] سورة النساء/ آية 173.
[4] سورة سيدتنا مريم عليها السلام/ آية 96.
[5] سورة طه/ آية 112.
[6] سورة الزخرف/ آية 68- 73.
[7] سورة ق/ آية 31- 35.
[8] سورة الدهر/ آية 19 و20.

واتّبع سبيل من أناب إليّ

تمهيد:

"الإنسان مدنيّ بالطبع، أي لا بد له من الاجتماع"[1]. فحتى تكون حياته مرضيةً، وسلوكه مستقيماً، لا بد أن يخالط الناس، ويكون له منهم أخلاّء وأصدقاء، وإلا بقي قلقاً مربكاً بعيداً عن مقتضى العقول السليمة، والفطر النظيفة، إذ الوحدانية من صفات الباري جل جلاله وعمَّ نواله، وللصداقات أثرٌ عميق في توجيه النفس والعقل، ولها نتائج هامة فيما يصيب الفرد والجماعة من تقدم أو تأخر، ومن قلق أو اطمئنان. . وقد عني الإسلام بهذه الصلات التي تربط الناس بعضهم ببعض لأمدٍ طويل. فهي إن بدأت ونمت نبيلةً خالصةً تقبلها الله تعالى بقولٍ حسن وأنبتها نباتاً حسناً، وإن كانت رخيصةً وهزيلةً ردَّها الله تعالى في وجوه أصحابها. يقول ربنا سبحانه: {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ}[2].

والإسلام يحث على التجمع والألفة، وما دعا أبناءه إلى العزلة العامة، والفرار من تكاليف الحياة، وما رسم رسالة المؤمن على أنها انقطاع في ديره، أو عبادة في صومعة، كلا بل شرع الجمعة والجماعات لتكون شعائره العظمى مثابةً يلتقي عندها المسلمون ليتعاونوا على أدائها، ويستوحوا من جوها الطهور عواطف الودِّ المصفَّى، والإخلاص العميق، وكلما كثرت الجماعة تكاثرت بركات الله تعالى عليها. ففي الحديث الشريف عن أبيّ بن كعب قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً الصبح فقال: "أشاهدٌ فلان؟ قالوا: لا. قال: أشاهدٌ فلان؟ قالوا: لا. قال: إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات على المنافقين، ولو تعلمون ما فيهما لأتيتموهما ولو حبواً على إلكب، وإن الصف الأول على مثل صف الملائكة، ولو علمتم ما فضيلته لابتدرتموه، وإن صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده، وصلاة الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل، وما كثر فهو أحبُّ إلى الله تعالى"[3].

وهكذا فإن الدرجات العالية، والمقامات الرفيعة، لم يكتبها الله تعالى للمنكمشين الضعاف الذين لا قدرة لهم على مخالطة الناس والاجتماع بهم، وتحمل تبعات المخالطة والاجتماع، بل وعدها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الصادقين الذين لا يخرجون من الدنيا إلا بعد أن يتركوا فيها ما يدل على قوتهم وعظمتهم. قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ

---

[1] ابن خلدون، المقدمة ص 41.

[2] سورة الزخرف/ آية 67- 70.

[3] رواه الإمام أبو داود في سننه، كتاب الصلاة – باب فضل صلاة الجماعة – رقم الحديث الشريف 554 جـ 1/ ص 151 و152.

خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان"[1].

[1] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى – انظر: مختصر صحيح مسلم/ كتاب القدر – باب في الأمر بالقوة ص 486.

أهمية الصحبة وفائدتها وآثارها

للصحبة أثرها سلباً وإيجاباً على الإنسان؛ لأن الصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي، والاقتداء العملي، فإن اختار الإنسان أصحابه وأقرانه من أهل الفساد والفسوق انحدرت أخلاقه، وانحطت صفاته تدريجياً دون أن يشعر، حتى يصل إلى الحضيض، ويهوي إلى مدارك الهوى والرذيل، وإن اختارهم من أهل الإيمان واليقين والتقوى والدين والمعرفة بالله تعالى، فلا يطول به الزمان حتى يرتفع بهم إلى الخُلُق القويم، والسلوك المستقيم، والإيمان الراسخ، والصفات العالية، والمعارف الربانية، ويتحرر من عيوب نفسه، ورعونات خلقه، ولهذا تعرف أخلاق الرجال بمعرفة أصحابهم وجلسائهم. وفي هذا يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[1].

وقول الشاعر:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارن يقتدي[2]

إن الطبع يسرق من الطبع، لذا قال الشاعر محذراً:

بنيَّ اجتنب كل ذي بدعةٍ ولا تصحبن من بها يوصف

فيسرق طبعك من طبعه وأنت بذلك لا تعرف[3]

وما أسرع الإنسان في السير نحو الوجهة التي يهواها صاحبه، وكما تسري العدوى في الأجسام فإنها تسري في الطبائع والأخلاق، وقد لوحظ أن عدوى السيئات أشد انتقالاً وأقوى أثراً من عدوى الحسنات، ففي كثيرٍ من الأحيان تنتقل عدوى شرب الخمور من المصاب بها إلى البريء، ويندر وقوع العكس. فأثر الصديق في صديقه عميق، ومن ثم كان لزاماً على المرء أن ينتقي إخوانه ويبلو حقائقهم حتى يطمئن إلى معدنها، فإن كانوا رجالاً معينين على أداء الواجب وحراسة وحفظ الحدود والحقوق، فهم قرناء الخير الذين يجب أن يتمسك بهم، ويحرص على مودتهم، وإلا فليحذر الانخداع بالذين يزينون له طرق الفساد والغواية، وليحذر الاسترسال معهم في أسباب اللهو واللغو والمميوعة والخنوع.

---

[1] رواه الإمام أبو دارد في سننه – كتاب الأدب – باب من يؤمر أن يجالس. رقم الحديث الشريف 4833 – جـ 4/ ص 259.

[2] البيتان لعدي بن زيد أو لطرفة بن العبد، انظر: ديوان عدي بن زيد، تحقيق: محمد جبار المعيد، ص 105 و106.

[3] النجم الزاهر، ص 146.

إن الصديق الصدوق المخلص قد يقود صديقه إلى النجاح في الدنيا، والفلاح في الآخرة، أما الصديق الغبي المفتون فهو شؤمٌ على صاحبه. وكم من غر قرع سن الندم الى هذه الصحبة السيئة لأنها وضعته على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم. يقول الله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا}[1].

وتقديراً لهذه الآثار، وحمايةً للأخلاق والعادات الكريمة، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخير الجلساء، فقال عليه الصلاة والسلام: "إنما مثل جليس الصالح، وجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثةً"[2]. فإذا كانت تلك حال الجليس الذي قد يجتمع به في لقاءٍ عابر، في ساعةٍ يسيرةٍ من ليلٍ أو نهار، فكيف بك مع صاحب العمر الذي يخالطك في السراء والضراء؟ إن مصالحبة الأتقياء الخلص ترفع إلى القمة، أما مصاحبة السفهاء البه فهي منزلقٌ سريع وخطيرٌ إلى الحضيض، وعلى هذه الأساس نتخيَّر الأصدقاء، ونرغب في الصداقات أو نزهد فيها. وأول شرائط الصحبة الكريمة: أن تبرأ من الأغراض، وأن تخلص لوجه الحق، وأن تولد في سبيل الإيمان والإحسان، فقد تتجمع القطعان على موردٍ عذبٍ أو كدر، وقد يلتقي الناس على دنيا عارضة أو شهوةٍ زائلة، وربما تأسست بينهم علاقات متينة، بيد أن هذا النوع من التعارف والتواد لا يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا، والقيم الخالدة الكبيرة من صفاءٍ ومودةٍ وتعاونٍ وتكافل، ولذلك اعتزَّ الإسلام بمشاعر الصداقة النقية، ورغَّب المؤمنين في إخلاصها لله تعالى وإبقائها لوجهه الكريم سبحانه، وأثاب عليها الثواب العظيم بما هي له أهل، فقد جاء في الحديث القدسي: "إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظل يوم لا ظل إلا ظلي"[3].

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله. قالوا: يا رسول الله، فخبرنا: من هم؟ قال: هم قومٌ تحابُّوا بروح الله، على غير أرحامٍ بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}"[4]. وهكذا تكون الأخوة في الله تعالى من الأسباب العظيمة التي بها يتوصل الإنسان

---

[1] سورة الفرقان/ آية 27 – 29.

[2] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعاى في صحيحه – كتاب البر والصلة – باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء جـ 8/ ص 38.

[3] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه. في كتاب البر والصلة والآداب – باب في فضل الحب في الله – جـ 8/ ص 12.

[4] رواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى في سننه، جـ 3/ ص 288 – رقم الحديث الشريف 3527 – كتاب البيوع – باب في الرهن.

إلى مقام الكرامة، وبالشكل الذي وضَّحه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق- والمحبة هذه تجعل الأخوة المتحابين في حماية الله تعالى وحراسته، وتأمل الحديث القدسي الآتي:

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله تبارك وتعالى: وجَّهت محبتي للمتحابين في، وللمتجالسين في، وللمتزاورين في، وللمتباذلين في"[1]. وتلك لعمر الحق منزلة لا تدانيها منزلة، فمن الذي يفرط فيها؟!!.

وهذه الصحبة مظهر من مظاهر تآلف القلوب بما يؤدي إلى تماسك المجتمع ووحدة الصف، وهو مستفادٌ من قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[2].

وقال سبحانه: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[3].

هذه بعض آثار الصحبة وأهميتها على الإجمال، والذي يهمني منها ما كان خاصاً بإعداد الإنسان للنجاة في الدار الآخرة خاصةً. . فأقول وبالله سبحانه وتعالى التوفيق: قد علمت فيما سبق أن العبادة المبنية على الإيمان الحق سبيل عظيمٌ واضح للنجاة في الدار الآخرة. بيد أن الإنسان محتاجٌ أشد الاحتياج في تحقيق العبودية إلى جملةٍ من الوسائل بها يتوصل إلى مقام العابدين الذين كتب الله سبحانه وتعالى لهم النجاة يوم الدين، ولفرط احتياجه هذا فإن الله تعالى أمره بابتغاء الوسيلة إليه لعله يصل إلى رضوانه سبحانه، فقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[4].

وقال سبحانه: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}[5].

وجه الاستدلال بهذه الآيات: في الآية الأولى أمرنا الله تعالى بتقواه عز وجل في كل ما نأتي ونذر، بترك ما يجب اتقاؤه من المعاصي التي جملتها المحاربة والفساد، وبفعل الطاعة التي من عدادها التوبة والاستغفار ودفع

---

[1] الترغيب والترهيب جـ 3/ ص365 – رقم الحديث الشريف 6 – كتاب البر والصلة باب ما جاء في فضل زيارة الصالحين، ومن زار أخاه المؤمن خاض في الرحمة حتى يرجع. ومسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 247.

[2] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 103.

[3] سورة الأنفال/ آية 62- 64.

[4] سورة المائدة/ آية 35.

[5] سورة الإسراء/ آية 56 و57.

الفساد، ثم أمرنا سبحانه أن نطلب لأنفسنا منه الثواب والزلفى (وابتغوا إليه الوسيلة) هي فعلية، بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله عز وجل من فعل الطاعات وترك المعاصي من وسل إلى كذا أي تقرب إليه بشيء"[1].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى (وابتغوا إليه الوسيلة)، قال سفيان الثوري عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أي القربة. وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسديوابن زيد وغير واحد. ونشد عليه ابن جرير قول الشاعر:

وإذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافي بيننا والوسائل

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحقيق المقصود"[2]. فتبين لنا من هذه الآية أن اتخاذ الوسائل المقربة إلى الله تعالى مأمور بها شرعاً، وهو للوجوب عند جمهور الأصوليين كما سبق. أما الآية الثانية فقد دلت على أن الملائكة والأنبياء مثل عيسى وعزير عليهم السلام وغيرهم من الذين عبدوا من دون الله تعالى هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله تعالى، ويتوسلون إليه تعالى بالطاعة والعبادة. فلو لم تكن الوسيلة مشروعة لما أقرهم عليها ووصفهم بها، وهم حيث علمت منارات الهدى وقدوات الخلق. ومن هذه الوسائل المشروعة الصحبة والأخوة على أساس إيمانيّ متين مؤسس على حب الله تعالى، فإنها طريقٌ مستقيم للنجاة في الدار الآخرة، فما نال الصحابة الكرام رضي الله عنهم الدرجات السامية والمقامات العالية – بعد أن كانوا في جاهلية جهلاء، وظلمات بعضها فوق بعض — إلا بصحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومجالستهم له، وما أحرز التابعون الشرف العظيم إلا لأنهم اجتمعوا وصحبوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا تابع التابعين لهم بإحسان، فكانوا أهل القرون الثلاثة الذين صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضلهم، وشهد على خيرتهم، فقال عليه الصلاة والسلام: "خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"[3]. بل مجدهم كتاب الله سبحانه وتعالى وبين مقامهم الذي لا يدانيه مقام سوى مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. فقال عز من قائل: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[4].

---

[1] روح المعاني جـ 3/ ص 124. بتصرف يسير.

[2] تفسير القرآن العظيم جـ 2/ ص 295.

[3] رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه – باب ما جاء في الرقاق وأن لا عيش إلا عيش الآخرة جـ 8/ ص 113- والإمام مسلم رحمه الله تعالى في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم – باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. جـ 7/ ص 184- 186. بألفاظ كثيرة متقاربة. ورواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى في سننه – كتاب – السنة – باب في فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ قريب – جـ 4/ ص 214. ورواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه – كتاب الفتن – باب 45 – ما جاء في القرن الثالث بألفاظ متقاربة متفقة في المعنى – ورواه أيضاً في كتاب الشهادات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب 4 – ما جاء في شهادة الزور جـ 4/ ص 433 و434 و475 و476.

[4] سورة التوبة/ آية 100.

وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[1].

وقال سبحانه: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[2]. وفي نفس السورة قال سبحانه: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[3]. وقال فيها أيضاً: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[4].

وقال سبحانه: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[5]

هذا غيضٌ من فيض مما جاء في شأن الصحابة الكرام رضي الله عنهم في القرآن الكريم، وإذا كانت السنة المشؤفة متممة لما جاء في القرآن العظيم ومبينة له، فإنها هي الأخرى جاءت بما يقطع بأن مكانة الصحابة مكانة لا يدانيها أحد غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وإليك رفيقي القارئ بعض هذه الشهادات النبوية فيهم:

فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفس محمد بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مد أحدكم ولا نصيفه"[6].

---

[1] سورة الفتح/ آية 10.
[2] سورة الفتح/ آية 18 و19.
[3] سورة الفتح/ آية 26.
[4] سورة الفتح/ آية 29.
[5] سورة الحشر/ آية 8 و9.
[6] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 3/ ص 306. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم – باب – تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم جـ 7/ ص 188 – ورواه الإمام أبو داود رحمه الله تعالى في سننه في كتاب السنة باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم الحديث الشريف 4658، جـ 4/ ص 214. وانظر: سنن الإمام ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 1/ ض 57.

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون"[1].

وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه"[2].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يأتي على الناس زمان، فيغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون نعم، فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون نعم، فيفتح لهم". رواه الشيخان، وزاد مسلم في رواية: ثم يكون البعث الرابع فيقال: انظروا، هل ترون فيهم أحداً رأى من رأى أحداً رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيوجد الرجل فيفتح لهم به"[3].

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني"[4].

هذه بعض ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم من نصوص تصور لنا مقام الصحابة رضي الله عنهم عند الله تعالى، وتبين لنا من جانبٍ آخر ثمرة الصحبة، وتؤكد لنا أن الصحبة الصالحة سبيل من سبل الإعداد للنجاة في الدار الآخرة. وكما أن الصحابة رضي الله عنهم استفادوا من هذا السبيل، كذلك استفاد التابعون من صحبتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستفاد تابعوا التابعين من التابعين رضي الله عنهم أجمعين، وبقيت الفائدة تسري من المتبوعين إلى التابعين إلى يومنا هذا، وستبقى كذلك إن شاء الله تعالى إلى ما يشاء ربنا جل جلاله وعمَّ نواله.

---

[1] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم – جـ 3/ ص 305. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى- كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة – جـ 7/ ص 183.

[2] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 3/ ص 306. وانظر: سنن افمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 653، كتاب المناقب باب 59 رقم الحديث 3862.

[3] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 3/ ص 304. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى – كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم – باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم جـ 7/ ص 184.

[4] التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول الله صلى الله عليه وسلم جـ 3/ ص 305. وانظر: سنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى جـ 5/ ص 694 – رقم الحديث الشريف 3358 – كتاب المناقب – باب ما جاء في فضل من رأى النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه.

وفضل التابعين وتابعيهم منصوص عليه بالحديث الصحيح السابق[1]، وهل وصل من وصل إلى الله تعالى من الأئمة المجمع على فضلهم وصلاحهم وورعهم، أمثال الشيخ معروف الكرخي المتوفى سنة 200هـ، وأبي سعيد الخراز المتوفى سنة 268هـ، والجنيد البغدادي المتوفى سنة 279هـ، والإمام الغزالي المتوفى سنة 505هـ، والشيخ عبد القادر الكيلاني المتوفى سنة 561هـ، رضي الله عنهم أجمعين. أقول هل وصلوا إلا بالصحبة المؤسسة على الإيمان الحق، واليقين الصادق، والمحبة والمودة؟ هؤلاء هم الوارث لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورثوا عن نبيهم العلم والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء عنه في الهداية والرشاد والإرشاد والدعوة إلى الله تعالى، فمن صاحبهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من حبيبهم محمد صلى الله عليه وسلم، وهم من الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

لكن قد تسأل: ما سر هذه الصحبة؟ وما دليله؟ فأقول وبالله التوفيق:

[1] وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم".

سر الصحبة ودليله

فيما أعتقد – والله سبحانه وتعالى أعلم – أننا لا نستطيع أن نفهم سر الصحبة إلا إذا آمنا بالتأثير الروحي، وأعني به تلك القوة الروحية التي يؤتيها الله تعالى من يشاء من عباده.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ثنائي التكوين، فقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[1]. ولا يخفى أن كلمة سويته إشارة إلى الجانب الماديّ الجسدي في الإنسان، وكلمة نفخت إشارة إلى الجانب الروحي في الإنسان، ولا يختلف اثنان أن الجانب الماديّ في الإنسان له طاقاته، بل الحق أن طاقات الجانب الماديّ مستفادة من طاقات الجانب الروحي، لذلك بمجرد خروج الروح من الجسد تنتهي الطاقات الجسدية، فالعين لا ترى، والأذن لا تسمع، كذلك بقية الحواس لا تعمل، بل يصبح الإنسان جثةً هامدةً تنتهي فاعليته، ولا تبقى له مقاومة على البقاء، وسرعان ما تتلاشى هذه الجثة وتنتهي، إذاً فالطاقات هي الروح، فإذا آمن الإنسان بهذا فليعلم أن من طاقات الروح تلك الشحنات التي يتوجه بها صاحبها على القلوب، فترتفع بها إلى مستوىً أقدس، وتسمو بالإيمان إلى مستوى المراقبة، والشهود مستوى، "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن لتراه فإنه يراك"[2].

والتأثير الروحيّ لا يقتصر على جانب الخير، بل يرد أيضاً في جانب الشر والإفساد، وذاك متمثلٌ في عمل السحرة والمبطلين والحاسدين والعياذ بالله تعالى، ولقد أثبت القرآن العظيم التأثير الروحي في سوره وآياته، فمنها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[3].

فقد بين الله تعالى أن من وظائف رسول الله صلى الله عليه وسلم: (التزكية)، ومن معانيها اللغوية: النماء والتطهير، أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينمي الطاقات والتوجهات الخيّرة عند المؤمنين بعد أن يطهر نفوسهم وقلوبهم من الأدران والأمراض. فكان عليه الصلاة والسلام يؤثر بنور قلبه في قلوب الناس، فيجعلها طاهرةً مهيأةً لذكر الله تعالى، بل يجعلها ذاكرةً فعلاً. وإليك رفيقي القارئ أمثلة على ذلك:

أ- ما حدث مع الصحابيّ الجليل أبيّ بن كعب رضي الله عنه حيث قال: "كنت في المسجد، فدخل رجلٌ فصلى، فقرأ قراءةً فأنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن هذا قرأ قراءةً فأنكرتها عليه، فدخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه،

---

[1] سورة الحجر/ آية 28 و29.
[2] سبق تخريجه في الباب الثاني ص 91، هامش 2 أيضاً.
[3] سورة الجمعة/ آية 2.

فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ، فحسّن النبي صلى الله عليه وسلم شأنهما، فسقط من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقاً وقمت وكأني أنظر إلى الله فرقاً"[1]. فأنت ترى النبي صلى الله عليه وسلم ما كلمه بشيء، وما شرح له كيفية تحسينه لقراءة الرجلين مع اختلافهما، ولا وضَّح له مسألة نزول القرآن الكريم على أحرفٍ كثيرة، إنما استخدم معه قوةً روحيةً طردت وساوس الشيطان وخطرات النفس الأمارة بالسوء، وملأت القلب خشيةً من الله تعالى، فسمت به إلى مقام المشاهدة، وصدق الله العظيم إذ يوكل إلى رسوله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم مهمة التزكية، (ويزكيهم).

ب- ما حدث لفضالة رضي الله عنه قبل إسلامه: ففي يوم فتح مكة، وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهز على الوثنية في عاصمتها الكبرى، ويحطم الأصنام ويرفعها من البيت الحرام، ويعظم هذا البيت بالطواف حوله، إذ بفضالة بن عمرو الليثيّ يدنو من رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قتله، إن كراهيته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحنقه عليه بلغ الذروة، إلى درجة أنه لم يفكر إلا بالقتل، وإذا بحبيب الله صلى الله عليه وسلم يقول له: أفضالة؟ فيقول: نعم، فضالة يال رسول الله، فيقول: ما كنت تحدث به نفسك؟ فيقول: لا شيء، كنت أذكر الله!!! فيضحك الحبيب صلى الله عليه وسلم ثم يقول له: استغفر الله. ثم يضع يده الشريفة على صدره، فيسكن قلبه. نعم، يسكن ذلك القلب المضطرب المملوء حقداً وكراهية، يسكن ويحدث الأمر العجيب الغريب، يقول فضالة: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه!!! الله أكبر، لقد ولى الكفر والشرك وسكن القلب واستقر، ودخله نور الإيمان وبرد اليقين، وسما به إلى درجات الإيمان الحق، إذ يقول الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[2]. ومن تمام قصته رضي الله عنه حين عاد إلى بيته مر بامرأة كان يميل إليها ويتحدث معها، فقالت له: هلم إلى الحديث، فانبعث قائلاً:

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت: لا يأبى عليَّ الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيناً والشرك يغشى وجهه الإظلام[3]

---

[1] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه جـ 2/ ص 202 و203 – كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب – بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معانيها -.

[2] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – كتاب الإيمان – باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين جـ 1/ ص 49.

[3] قصة فضالة وردت في كتب السيرة النبوية. انظر: سيرة ابن هشام جـ 4/ ص 37. وفقه السيرة للبوطي ص 398.

والصحابة رضي الله عنهم صرحوا بهذه الفائدة الروحية التي كانوا يشعرون بها ويتذوقونها، ويجدون تأثيرها بل حلاوتها متمثلةً في إيمان عالٍ، ويقينٍ بيّنٍ واضح، فهذا حنظلة رضي الله عنه يقول: لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كانا رأي العين، فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كانا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر، لصافحتكم الملائمة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ثلاث مرات"[1]. وهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: "لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن النبي صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا"[2].

جـ- ومنها قوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}[3].

وقوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}[4].

فالسورتان صريحتان في وجوب الالتجاء والاحتماء بالله تعالى من شر المخلوقات، فهما تثبتان للمخلوقات تأثيرات، منها المادية وأكثرها المعنوية الروحية، وهي واضحة في شر الحاسد والوسواس الخناس، فالحاسد يؤذي المحسود، لكن أذاه له روحيّ، ومما يؤيد هذا قول الله تعالى حكايةً عن سيدنا يعقوب عليه السلام: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}[5]. فيعقوب عليه السلام قال ناصحاً لأولاده لما عزم على إرسالهم:

---

[1] صحيح الإمام مسلم بشرح النووي رحمهما الله تعالى جـ 17/ ص 65 و66 – كتاب التوبة – باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة. ومعنى عافسنا: داعبنا وعالجنا، والضيعات: جمع ضيعة، وهو معاش الرجل من أرضٍ أو مال. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 8/ ص 94.

[2] رواه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى في سننه جـ 5/ ص 588 رقم الحديث الشريف 3618 – كتاب المناقب – باب في فضل النبي صلى الله عليه وسلم.

[3] سورة الفلف/ آية 1- 5.

[4] سورة الناس/ آية 1- 6.

[5] سورة سيدنا يوسف عليه السلام/ آية 67.

(يا بني لا تدخلوا) أي مصر (من باب واحد)، فنهاهم عليه السلام عن ذلك حذراً من إصابة العين، فإنهم كانوا ذوي جمال وشارة حسنة، وقد اشتهروا بين أهل مصر بالزلفى والكرامة التي لم تكن لغيرهم عند الملك، فكانوا مظنة لأن يعانوا إذا دخلوا كوكبةً واحدة"[1]. فلو لم يكن الاعتقاد بتأثير العين أمراً مشروعاً لما جاز على نبيٍّ كريم ابن كريم، أن يوصي أولاده بما ينجيهم من إيذاء العائن. ومما يؤيد هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث في هذا الموضوع، وإليك بعضاً منها:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "العين حق، ولو كان شيءٌ سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا". قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: "أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا: العين حق، وأنكره طوائف من المبتدعة، والدليل على فساد قولهم أن كل معنى ليس مخالفاً في نفسه ولا يؤدي إلى قلب الحقيقة ولا إفساد دليل فإنه من مجوزات العقول إذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه، وهل من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة"[2].

وروى الإمام مسلم رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العين حق"[3].

وقد أفرد الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه باباً بعنوان (استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة)، مما يدل على ما ذكرت[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل من العين[5].

وبعد هذا البيان لآثار الصحبة والاستدلال على سر تأثيرها، أقول: لا يقتصر التأثير الروحي في جانب الخير على النبي صلى الله عليه وسلم، بل رحم الله سبحانه وتعالى هذه الأمة، فجعل فيها من يرث رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوجه الروحي والتطهير النفسي، وهذا ما أريد بيانه إن شاء الله تعالى فيما يأتي:

---

[1] روح المعاني جـ 7/ ص 15.

[2] صحيح مسلم بشرح النووي رحمهما الله تعالى جـ 14/ ص 170 و171.

[3] صحيح مسلم بشرح النووي جـ 14/ ص 170. وانظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالىجـ 7/ ص 15 باب الطب والمرض والرقى – وسنن أبي داود رحمه الله تعالى كتاب الطب باب ما جاء في العين – رقم الحديث 3879. جـ 4/ ص 9. وسنن الإمام الترمذي رحمه الله تعالى – كتاب الطب – باب ما جاء في الرقية من العين جـ4/ ص 393 – 395. وسنن ابن ماجة رحمه الله تعالى جـ 2/ ص 1160 و 1161 كتاب الطب باب من استرقى من العين. والإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه كتاب الطب باب رقية العين جـ 7/ ص 171. ومسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى جـ 1/ ص 274 و294، وجـ 2/ ص 319 و420 و439 و487.

[4] انظر: صحيح الإمام مسلم رحمه الله تعالى جـ 7/ ص 17.

[5] سنن أبي داود رحمه اللله تعالى – كتاب الطب – باب ما جاء في العين رقم الحديث الشريف – 3880 – جـ 4/ ص 9.

وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأعني به العالِم العامل الربانيّ الذي أجيز الإجازة العلمية والإجازة الروحية، فهو موصول اليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناحية العلمية والناحية الروحية. يمنحه الله تعالى من قوة رسول الله صلى الله عليه وسلم الروحية التي سبق الحديث عنهافي المطلب السابق، فيكون وارثاً ونائباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"فالتأثير الروحي في الوارث المحمدي بعثةً تبعيةً نيابيةً أشار إليها الرسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "أفضلكم الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى لرؤيتهم" أي يصير قلب الرائي ذاكراً"[1]. والورّاث المرشدون يهدون الخلق إلى الحق. قال الله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}[2]، قال سبحانه: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[3]. فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قبيل تعليم الأمة وإرشادها من خلال شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال سبحانه وتعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[4].

وقال سبحانه حكايةً عن سيدنا موسى عليه السلام حين التقى بالعبد الصالح عليه السلام بعد عزم صادق، وسفر شاق، وعناء طويل: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}[5]. فلو لم تكن صحبة هؤلاء الأخيار ترياقاً مجرباً، وبلسماً شافياً لما أمرنا الله سبحانه وتعالى بها، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم كما ورد في الحديث الصحيح. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون يسبحونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك. قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً،

---

[1] النجم الزاهر، ص 26. والحديث الذي ورد في النص رواه الترمذي رحمه الله تعالى في نوادر الأصول عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه بسند ضعيف. انظر: الجامع الصغير جـ 1/ ص 195 رقم الحديث الشريف 1380.

[2] سورة الفرقان/ آية 59.

[3] سورة الكهف/ آية 28.

[4] سورة سيدنا لقمان عليه السلام/ آية 15.

[5] سورة الكهف/ آية 66 و67.

وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها، وأشد لها طلباً، وأعظم لها رغبةً. قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد منها مخافةً. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم"[1]. فمرافقتهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان، والبعد عنهم سمٌّ قاتل، "فالطريق العملي الموصل لتزكية النفوس، والتحلي بالكمالات الخلقية هو صحبة الوارث المحمديّ والمرشد الصادق الذي تزداد بصحبته إيماناً وتقوى وأخلاقاً، وتشفى بملازمته من أمراضك القلبية وعيوبك النفسية، وتتأثر شخصيتك بشخصيته التي هي صورة عن الشخصية المثالية، شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم"[2].

وإضافةً لما ورد في وجوب صحبتهم وأثرها البالغ في إصلاح النفوس، فإني أذكر أقوال بعض أئمة الهدى والخير من المحدثين والعلماء العاملين والمشايخ الكاملين رحمهم الله تعالى أجمعين، وأنالهم من كرمه اللائق بذاته الأقدس. قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسير سورة الفاتحة "الباب الثالث في الأسرار العقلية المستنبطة من هذه السورة (الفاتحة) فيه مسائل. . . اللطيفة الثالثة: قال بعضهم: أنه لما قال: "اهدنا الصراط المستقيم" لم يقتصر عليه، بل قال: "صراط الذين أنعمت عليهم"، وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل، ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل، وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط، فلا بد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوَّى عقل ذلك الناقص بنور عقل الكامل، فحينئذ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات"[3]. وقال الشيخ إبراهيم الباجوري عند شرحه كلام الشيخ إبراهيم صاحب جوهرة التوحيد:

وكن كما كان خيار الخلق حليف حلم تابعاً للحق

"أي كن متصفاً بأخلاق مثل الأخلاق التي كان عليها خيار الخلق. . . إلى أن قال: وإذا كانت المجاهدة على يد شيخ من العارفين كانت أنفع، لقولهم: حال رجل في ألف رجل أنفع من وعظ ألف رجل في رجل، فينبغي للشخص أن يلزم شيخاً عارفاً على الكتاب والسنة، بأن يزنه قبل الأخذعنه، فإن وجده على الكتاب

---

[1] رواه الإمام مسلم رحمه الله تعالى في صحيحه – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار- باب فضل مجالس الذكر- جـ 8/ ص 68.
[2] حقائق عن التصوف ص 45.
[3] تفسير الفخر الرازي جـ 1/ ص 142.

والسنة لازمه، وتأدَّب معه، فعساه أن يكتسب من حاله ما يكون به صفاء باطنه، والله يتولى هداه"[1]. وقال الحافظ أبو عبد الله محمد الشهير بابن القيِّم: "فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل، فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين، وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟فإذا كان الحاكم عليه هو الهوى، وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً. . . إلى أن قال: فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبتعد عنه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى، واتباع السنة، وأمره غير مفروطٍ عليه، بل هو حازمٌ في أمره، فليستمسك بغرزه"[2].

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه اله تعالى: "مما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة. ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاجٌ للمربي، علمت أنه لا بد للسالك من مرشد البتة، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلاً لهم، ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم. وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلُّوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة. فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة". ويقول رحمه الله تعالى: "إن الله عز وجل إذا أراد بعبدٍ خيراً بصَره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة، لم تخفَ عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق: الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصيرٍ بعيوب النفس، مطلع على خفايا الآفات، ويحكمه في نفسه، ويتبع إشاراته في مجاهداته، وهذا من شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجها"[3].

وقال العارف بالله تعالى ابن عطاء السكندري: "وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد، أن يبحث عن شيخٍ من أهل التحقيق، سالكٍ للطريق، تاركٍ لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينته عما نهى عنه وزجر"[4]. وقال أيضاً: "لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على

---

[1] شرح الجوهري للباجوري ص 133.
[2] الوابل الصيّب من الكلم الطيّب ص 53.
[3] إحياء علوم الدين جـ 3/ ص 64.
[4] مفتاح الفلاح ص 30.

الله مقاله"[1]. وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى في قصيدته الموسومة بـ "النوادر العينية في البوادر الغيبية":

وإن ساعد المقدور أو ساقك القضا إلى شيخ حقٍ، في الحقيقة بارعُ
فقم في رضاه، واتبع لمراده ودع كل ما من قبل كنت تسارعُ
ولا تعترض فيما جهلت من أمره عليه، فإن الاعتراض تنازعُ
ففي قصة الخضر الكريم كفاية بقتل غلامٍ، والكليم يدافعُ
فلما أضاء الصبح عن ليل سره وسل حساماً للغياهب قاطعُ
أقام له العذر الكليمُ وإنه كذلك علم القوم، فيه بدائعُ[2]

وقال الشيخ محمد الهاشمي رحمه الله تعالى: "فاسلك ياأخي على يد شيخٍ حيً عارفٍ بالله، صادق ناصح، له علمٌ صحيح، وذوقٌ صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، سلك الطريق على يد المرشدين، وأخذ أدبه عن المتأدبين، عارف بالمسالك، ليقيك في طريق المهالك، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار من سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، يوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فإذا عرفته أحببته، وإذا أحببته جاهدت فيه، وإذا جاهدت فيه هداك لطريقه، واصطفاك لحضرته، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[3].

فصحبة الشيخ والاقتداء به واجب، والأصل فيه قوله تعالى: {وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}[4]، وقوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}[5]ا هـ[6].

وتكفي ألي الألباب هذه الشهادات والتوجيهات من هؤلاء الأفذاذ الذين أجمعت الأمة على فضلهم وصلاحهم، فهم أولى بالاتباع والاقتداء، فهم العارفون بالله تعالى، وهم الداعون إليه بأقوالهم وأعمالهم وأرواحهم، وهم المرشدون حقاً، العالمون علم الكتاب والسنة والهداية الروحية، وأطيب شيء أختتم به هذا المطلب، ما قاله شيخنا العلامة الدكتور عبدالله بن الشيخ مصطفى النقشبندي رضي الله عنه وأرضاه وهو يخاطب الراسخ في علم الفيزياء: "وإنك – أيها الزميل العزيز ويا نعم الصاحب – إنما ارتقيت بعقلك دون قلبٍ مصاحب، رقيت لكن بقيت في السماء الدنيا، وأن حريٌّ أن تسمو منها إلى العليا، أحب لك أن

---

[1] إيقاظ الهمم في شرح الحكم، جـ 1/ ص 74.
[2] فتوح الغيب ص 201.
[3] سورة العنكبوت/ آية 69.
[4] سورة سيدنا لقمان عليه السلام/ آية 15.
[5] سورة التوبة/ آية 119.
[6] شرح شطرنج العارفين ص 14.

تثوب إلى لطيفة قلبك، وتسمو إلى محبة ربك، فإذا أنت أحببت كما أحببت، أوجبت على نفسك كما أوجبت، التزام صدق ورغبة ودين بالشرعة الغراء الموحى بها إلى خاتم النبيين –عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين وآله وأصحابه الطيبين، صلاة الله وسلامه في عليين. فإنها أساس المرقاه، وقانون تنظيم الحياةز وإنه هو صاحب الإسراء والمعراج، وهادي كل شارد وراج، وإذا صحبتني أنت إلى عالم الأولياء كما صحبتك أنا إلى عالم الفيزياء، وجدتني رفيقاً وافاك بالسراج الوهاج، وهداك إلى معراج لا وهن عليه ولا اعوجاج، ثم تهيم منا البصائر بجلال لا أول له ولا آخر، نلفيه عين الجمال السرمدي البديع، يتجلى في الزهر والعطر، والحب والجنة، وكل جميل وزكي ووديع. وهناك نسجد لله سبحانه، ونتلو عند كل صلاة نفل وفرض، {اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[1]. والحمد لله رب العالمين.

[1] مجمع الأشتات/ الكتاب الأول ص 162- 163 – والأية الكريمة من سورة النور/ آية 35.

الخاتمة

في أهم النتائج المستخلصة

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث، أود أن أسجل أهم النتائج التي توصلت إليها، والله سبحانه وتعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل:

1- إن الوسائل التي أرشد إليها القرآن الكريم لنجاة الإنسان من ذلك اليوم العظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ربَّت وأعدت نماذج من البشر سعدت بهم الدنيا، وعاشت بخيرٍ وطمأنينة، مما يدل على أنها لا تقتصر في منفعتها على النجاة في الدار الآخرة فقط.

2-لا يمكن أبداً قبول منهجٍ آخر غير منهج الإسلام في إيصال الإنسان للكمال المقدور له؛ وذلك لأن منهج الإسلام هو وحي الله تعالى إلى رسوله الله صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل هو الذي خلق الكون والإنسان ووهب الحياة، فهو سبحانه أدرى بما خلق وبمن خلق، وأدرى بما ينفع. قال سبحانه وتعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[1]. وأكد القرآن الكريم على هذه المسألة تأكيداً كبيراً بقواطع من آياته البينات، فقال سبحانه وتعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[2]. وقال سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[3].

وقال سبحانه: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[4].

3-العقيدة أساسٌ للسلوك، لأن العقيدة تحدد مفهوم الإنسان عن الكون والإنسان والحياة. ولا شك في أن الإنسان يتصرف في هذه الحياة حسب مفاهيمه عنها، فإن اعتقد بخلودها وأنه هالك فيها ولا تعود إليه الحياة، كانت حركته في الحياة على هذا الأساس، فتراه لا يبالي فيما يأتي ويذر، وإن اعتقد أن هذه الحياة فانية وأنها للابتلاء والاختبار، حاول ضبط سلوكه، ورسم حركته على هذا الأساس. فالعقيدة السليمة ينبثق

---

[1] سورة الملك/ آية 14.
[2] سورة آل عمران عليهم السلام/ آية 85.
[3] سورة النساء/ الآيات 60- 63.
[4] سورة النساء/ آية 65.

عنها سلوكٌ سليم قويم، والعكس صحيح، ولأجل هذه الحقيقةكانت الوسيلة الأولى لإعداد الإنسان هي الاعتقاد الصحيح السليم.

4-العبادات الإسلامية لها خصائص، ومن خصائصها البارزة، شمولها لحركة الإنسان في الدنيا. فما من عملٍ يقوم به الإنسان أو يتركه إلا وللإسلام كلمته فيه. وهذا دليل على هيمنة الشريعة الإسلامية على التصرفات الإنسانية، وهو دليل على كمال عقيدة وشريعة، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[1]. ومن هنا فإن كل الأبواب الفقهية والأخلاقية السلوكية داخلة في باب العبادات الإسلامية.

5-البحث عن المرشد الكامل الذي يرث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر له أهميته القصوى لسالك درب الآخرة، لأنه بعون الله تعالى يطوي له المسافات طيًّاً، وعن طريقه يستمد من الطاقات الروحية التي أوتيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تجعل قلبه ذاكراً، وسلوكه مستقيماً قويماً.

6-لكثرة المدعين والمتشيخة يجب على المؤمن الصادق أن يتثبت ممن يتخذه قدوةً ومرشداً، وإلا هلك وأهلك. فلا بد للمسلم أن يعرف الشروط الأساسية التي يجب توفرها في المرشد الكامل، ومن أهمها أن يكون مجازاً في الناحيتين العلمية والروحية.

ولخطورة هذه النقطة، فإني أرى والله سبحانه وتعالى أعلم أنها بحاجة إلى دراسة موضوعية علمية دقيقة؛ لأن أكثر المسلمين غافلون عنها وعن فوائدها وآثاراها.

ولعل شدة التيارات المادية التي طغت على الحياة الإسلامية في هذا العصر هو السبب الرئيس في غفلة المسلمين عن هذه المسألة وزهدهم فيها، إلى درجة أن أكثرهم يعتبرونها أقرب إلى الباطل منه إلى الحق والعياذ بالله.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمنا. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين، ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوفٌ رحيم. اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، ونسألك اللهم حسن الختام.

---

[1] سورة المائدة/ آية 3.

هذا ولا يزال الموضوع بحاجة إلى جهود أخرى، وحسبي أنني بذلت ما سمح به الوقت والجهد، فإن وفقت إلى الخير فمن الله سبحانه وتعالى، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، وإني أرجو في كلا الحالتين أن لا أحرم من كرم الله تعالى الجواد الكريم على نية فعل الخير، والسعي في سبيل تحقيقه، فهذا ما في طاقتي، أما التوفيق فمن الله تعالى وحده، وقديماً قيل:

على المرء أن يسعى لتحقيق مطلب وليس عليه أن يكون موفقا

والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، إن ربي على صراطٍ مستقيم، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.